المنهج الرباني في
الدعوة إلى الله

وحيد الدين خان

المنهج الرباني في الدعوة إلى الله

GLD
تونس 2025

المنهج الرباني في الدعوة إلى الله

وحيد الدين خان

ر.د.م.ك: 978-9938-60-751-2

الطبعة الأولى : تونس 2025

توضيب وتصميم الغلاف من إعداد مؤسسة:

GLD

العنوان: 10 شارع فلسطين 1002 تونس

الهاتف: 00216.71.336.424

البريد الالكتروني: gld@latrach-edition.com

www.latrach-edition.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

يسـرنا بعد ما يقارب أربعة عقود من الطبعة الأولى، أن تُقدّم للقارئ الكريم طبعة جديدة من كتاب «**المنهج الرباني في الدعوة إلى الله**»، **للمفكر الإسلامي وحيد الدين خان**، مؤلف كتاب « **الإسلام يتحدى**»، الذي بذل حياته من أجل بيان المنهج والنّهج الصحيح للعمل الدعـوي، وعلى الرغم من عشرات المؤلفات والأعمال الفكرية طيلة الربع الأخير من القرن الفائت، إلا أنّه وللأسف لم يستفيد منها الدعاة والعاملين في عالمنا الإسلامي والعربي خاصة في خدمة الأمة، إلا ما نذر، وها نحن اليوم أصبحنا نرى نتائج الطريق الخاطئ الذي سارت عليه معظم حركات العمل الدعوي، فقد تبيّن لنا عدم صحة بعض الأفكار والمفاهيم التي راجت باسم الإسلام، والتي عجزنا عن إدراك نوعية خطأها على المستوى الفكري بالأمس القريب، لتظهر في واقعنا الحياتي في أشكال عدة من الإحباط والفشل العملي، فبعد الجهود الكبيرة والتضحيات الجسام التي بذلت، للأسف وصلت قافلة العمل الحركي الإسلامي إلى واقع جعل معظم أفراد الأمة الإسلامية في حيرة من أمرهم ويسألون أنفسهم أين الخلل ؟

لقد كان بالإمكان تجنب كل ذلك لو أعملنا الفكر والرأي، مع إخلاص النية لله سبحانه وتعالى قبل الشروع والولوج في ميادين العمل لخدمة دين الله، ولا شك أن إدراك الخطأ من خلال التطبيق العملي يُعد أمرًا باهظ الكلفة، ولعل هذا الكتاب يُسهم في بيان النّهج والمنهج الرباني في الدعوة إلى الله على بصيرة، فواجب النصح فريضة علينا لكل مسلم غيور على نصرة دين الله. وختاماً نتقدم بخالص الشكر، لكل من أسهم في إعادة طباعة ونشر هذا العمل وهم كثر، في أعمال الترجمة والمراجعة والدعم المادي وغيرها، وفقنا الله جميعًا لخدمة دينه وعباده.

طارق بن ساسي
طرابلس 13 ابريل 2025م
+218928530104

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمدُ لله رب العالمين، وصلى الله على نبيه الكريم، الذي أرسله رحمة للعالمين وأرسله للناس كافة: ﴿**شاهدًا ومُبَشّرا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعيًا إلَى الله بإذنه وسِرَاجًا مُنِيراً**﴾[1].

إنه من توفيق الله وفضله أن نقدم للقارئ العربي المسلم هذا المؤلف الذي يهدف إلى تقديم صورة صحيحة للمنهج الرباني في الدعوة الإسلامية، وهو المنهج الذي عرف به المفكر الإسلامي **الشيخ وحيد الدين خان** من بين المفكرين المسلمين المعاصرين.

ولعلّ كثيرًا من القراء العرب يعرفون المفكر الإسلامي **الشيخ وحيد الدين خان** من خلال مؤلفه المشهور «**الإسلام يتحدى**»، ولكنّه من المؤسف مازال مجهولاً على الصعيد الفكري المنهجي بسبب تأخر ترجمة مؤلفاته إلى العربية، ومن عرف **الشيخ وحيد الدين خان** المفكر المنهجي سوف يجد أمامه نوعية فريدة من الفكر الإسلامي الإيجابي، فهو مفكر عملاق يتصدى لمعالجة أعقد قضايا الفكر بأسلوب علمي يبهر العقول، والميزة التي يمتاز بها **الشيخ وحيد الدين خان** من بين أقرانه من مفكري العصر إدمانه على دراسة الكتب العلمية والفكرية باللغة الانجليزية، ويمكن تقدير سعة اطلاعه وعمق دراسته من خلال مؤلفاته، ولقد علمتُ منه أنه لكي يستوعب **الفلسفة الماركسية** ظل منكّبًا على قراءة أهم المصادر الأساسية والأولية حتى قرأ أكثر من عشرة ألف (10.000) صفحة في صميم الموضوع قبل أن يكتب عن الماركسية كتابه «**الماركسية في الميزان**»، وعندما تصدى للرد على المدارس الفكرية الإلحادية وعلى رأسهم (**برتراند رسل**) الذي يعد دعامة الفكر الإلحادي في العصر الحديث قرأ أكثر أعماله، ولقد أفادني أيضا أنّه ربما قرأ مائة صفحة ليكتب صفحة واحدة فقط .

(1) الأحزاب: الآيتان 46 ـ 47.

وتمتاز كتابات الشيخ وحيد الدين خان بالأسلوب العلمي والتحليلي، فهو أحد المفكرين المسلمين القلائل الذين تمكنوا من استيعاب ثقافة العصر، وربما وصل اطلاعه على الفكر المعاصر درجة لم يصلها مفكر مسلم من قبله، وفي نفس الوقت فهو متمكن من العلوم والدراسات الإسلامية في أدق خفاياها، وكما جاء في وصفه: «وحيد الدين خان أحد المفكرين المسلمين القلائل الذين جمعوا بين ثقافة العصر في أعمق ظواهرها وأعقد تشعبانها، وبين ثقافة الإسلام الخالدة في أدق خصائصها وأشمل معطياتها وهي ميزة قلما وجدت بين مثقفي هذا العصر»[1] .

ولد الشيخ **وحيد الدين خان** في أول يناير سنة (1925م) في مدينة (أعظم كره بالهند) وتعلم في جامعة الإصلاح العربية الإسلامية، وبدأ الشيخ وحيد الدين خان يقدم حصيلة فكره بعد دراسات عميقة، وفي البدء انتظم في سلك لجنة التآلف التابعة للجماعة الإسلامية بالهند وعمل سنوات معدودة، ثم أمضى ثلاث سنوات مكبًا على التأليف في المجمع الإسلامي العلمي التابع لندوة العلماء (بلكناؤ)، ثم شغل رئيس تحرير مجلة الجمعية الأسبوعية في (دلهي) (1967م) لمدة سبع سنوات حتى أُغلقت المجلة من قبل السلطات، وفي أكتوبر سنة (1976م) أصدر لأول مرة ومستقلاً عن كافة الهيئات مجلة (**الرسالة**)،ودأبت هذه المجلة الشهرية على الصدور حتى الآن ونالت حظًا كبيرًا من النجاح والقبول، ولقد ألف **الشيخ وحيد الدين خان** عدّة مؤلفات هامة نذكر منها على الخصوص (**الإسلام يتحدى، الدين في مواجهة العلم، تجديد الدين، الإسلام والعصر الحديث، حكمة الدين، قضية البعث الإسلامي، الإنسان القرآني**)، وجميع هذه المؤلفات ترجمت إلى العربيـة، ومن المؤلفات المهمة التي لم تترجم له:(**محمد رسول الثورة، ظهور الإسلام، الله اكبر**)، بالإضافة إلى تفسيره للقرآن (**تذكير القرآن**) إلى غير ذلك من المؤلفات التي تربو على خمسين (50) كتابًا، وآلاف من المقالات المنشورة وغير المنشورة .

(1) مجلة الأمة القطرية ذو القعدة 1405هـ.

ويطيب لنا أن نقدّم هذا العمل الفكري الذي يتضمن أهم ما كتبه **الشيخ وحيد الدين خان** في قضية الدعوة الإسلامية ويحتوي على مقالات سبق وأن نشرت، ونعيد نشرها بعد موافقة المؤلف، ومقالات لأول مرة بعد أن قمنا بمراجعتها.

ختامًا نرجو من الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وخطوة في طريق بناء الوعي الصحيح لمفاهيم الإسلام في عقول الشباب العربي المسلم، ليكون على الهداية الإلهية الصحيحة نظريًا إنه سميع مجيب الدعاء.

محمد سليمان القائد

تونس 01/ 10/ 1988

الإيمان

ما هو الإيمان؟

الإيمان ليس اسماً لعقيدة تقليدية، الإيمان شعور حيّ، معناه اللفظي **(الإقرار)**، فعندما يؤمن الإنسان بالله، بكماله، وتمام صفاته، وبجميع أقواله، وبالوحي، والآخرة، والملائكة وغير ذلك، ويصدّق بكل هذا تصديقًا يقينيًا، ويكون راضيًا بقضاء الله وقدره فهذا هو الإيمان.

فهناك إحدى الكيفيات للإيمان بهذه الأشياء، وهي طريقة تقليدية متوارثة عن الآباء والأجداد ولكن مثل هذا الأيمان ليس مطلوبًا عند الله فالإيمان بهذا الشكل يكون مجردًا وفارغًا من الروح، وكمثال على ذلك أن يكون عند أحد خنصر زائد، وهو في ظاهره شبيه بالإصبع ولكنه لا عمل له ولا جدوى منه، بعض الناس يتركونه والبعض يجرون عليه عملية جراحية ونفس الشيء بالنسبة للإيمان التقليدي.

فالإيمان التقليدي جزء من حياة الإنسان، ولكنه بدون أثر، ولا يكون حاكمًا لحياته ولا شأن له فيها، فحياته في جانب والإيمان في جانب آخر.

إن الإيمان الحقيقي هو (إيمان **شعوري**) **﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾**[1] المقصود منه معرفة الله الذي لا تدركه الأبصار، ومشاهدة الحقائق الغيبية. ومن هذا الاعتبار نستطيع القول بأن الإيمان هو (اكتشاف) فالشيء الذي يعرفه الإنسان عن طريق الاكتشاف لا يكون بسيطًا وعاديًا بل هو انقلاب أو هزة شديدة أصابت أرضًا ساكنة، أو جريان متدفق حل بمياه ساكنة. فعندما يجد أحد مثل هذا الإيمان فإنه يغير تفكيره ويغير مزاجه، ويغير وجهته من اتجاه لآخر، ليصبح للإنسان المؤمن شخصية جديدة، ولن يستمر كما

(1) الأنعام: من الآية 122.

كان، فيصبح جديدًا في أقواله وأفعاله، وللتوضيح سنورد بعض الأمثلة من قصص القرآن الكريم:

* **المثال الأول**: يتعلق بسحرة مصر، في زمن موسى ـ عليه السلام ـ لقد كانت عصا موسى ـ عليه السلام ـ تتحول إلى ثعبان كبير بمعجزة من الله، فجمع فرعون السحرة ليتغلب على موسى ـ عليه السلام ـ أي عصا موسى، وعندما جاء السحرة إلى فرعون قالوا: ﴿**إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ**﴾[1]. وهذا كان تعبيرًا عن لسان حال السحرة قبل ظهور الحقيقة. غير أنه وبعد المقابلة التي جرت مع موسى ـ عليه السلام ـ في ميدان واسع، ورؤية السحرة لعصا موسى ـ عليه السلام ـ وهي تبتلع ثعابينهم اتضح لهم أن موسى ـ عليه السلام ـ نبي الله لأن هذا العمل الكبير لا يصدر إلا من أنبياء الله، فما كان منهم إلا أن خروا ساجدين لله في الحال، وقالوا: ﴿**آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[2]، أن موقف السحرة هذا يُعد قبول للدين الذي جاء به موسى ـ عليه السلام ـ وبمثابة هزيمة ذاتية لفرعون مرتبطة بمسألة العبادة لديه، فقال غاضبًا: ﴿**فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ**﴾[3]، فرد السحرة قائلين: ﴿**فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾[4] ،انظروا إلى هذا المثال يبدو لنا بوضوح ما يحدثه الإيمان من انقلاب داخلي (شعوريّ) وتجدّد في الشخصية، فقبل هذا الحدث بقليل كان السحرة يخافون من فرعون ويخضعون له، ولكن بعد أن أكرمهم الله بنعمة الإيمان الشعوري لم يكترثوا لسخط فرعون وغضبه الشديد .

إنهم في الظاهر هم نفس الأشخاص، ولكنهم ـــ باطنيًا ـــ أصبحوا أشخاصًا جددًا يخشون الله فقط، ولا يهتمون إلا بالآخرة (فكل ماعدا الآخرة لا قيمة له عندهم).

* **المثال الثاني**: هناك ناحية أخرى من الإيمان فقد جاء في الذكر الحكيم بأن الإيمان معرفة قال الله تعالى: ﴿**تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ**

(1) الأعراف: 113.
(2) الأعراف: 121.
(3) طه: من الآية 71.
(4) طه: من الآية 72.

الْحُقِّ﴾[1]، فعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ــ رضي الله عنه ــ قَالَ: قَـــالَ رَسُـــــولُ اللَّهِ ــ صلى الله عليه وسلم ــ: «مَنْ عَلِمَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللّٰهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، حديثٌ صحيحٌ. أَخرجهُ الجماعةُ إِلا النَّسائِيَّ[2]، فالمعرفة والعلم تسمية لشيء يحصل بالشعور. فعندما يفوز الإنسان بالإيمان الشعوري (القلبي)، فهذا الشعور لا يكون كعقيدة بدون أثر أو كنظرية جامدة بل يحل في جسم الإنسان كله، ويحرك شخصيته.

وقد ذُكرت في أول الجزء السابع من القرآن الكريم قصة تتعلق بهذا الإيمان: جاء وفد يتكون من عشرة (10) أشخاص إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من منطقة (نجران) فتلا عليهم الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ آيات من الذكر الحكيم، وعندما أنصتوا لآيات الذكر الحكيم انشرحت صدورهم وعرفوا الله، وانكشف لهم بأن القرآن كتاب الله وأن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ ووصف حالهم بعد المعرفة التي أكرمهم الله بها بهذه الألفاظ القرآنية: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرىَ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾[3].

هؤلاء عندما وجدوا شعور الإيمان بكوا دون اختيارهم، والبكاء ليس عملاً بسيطًا إنه إظهار للمشاعر الباطنية فعندما يحرك الاعتراف بالحقيقة القلبَ، وعندما ينشق الصدر بانكشاف عظيم، وعندما يُنير لقاءُ العبد بربّه الدنيا المظلمة، عند ذلك تتيقظ العواطف في قلب الإنسان، وتجد هذه العواطف منافذ لإخراجها والعين إحدى هذه المنافذ، ذلك لأن الدموع التي تخرج من الأعين دليل على تجربة القرب من الله، ودليل على أن الإنسان حصل على نصيب من النعمة عظيمة القدر التي تسمى (الإيمان). وكتب المفسر ابن كثير شارحًا للإيمان: «الخشية **خلاصة الإيمان**»، ولهذا التفسير الذي أعطاه ابن كثير للإيمان معنى عميقًا، فالإنسان يؤمن بشيء ما ويختاره ويجعله في درجة الإيمان، وطبقًا لذلك تحدث فيه تغييرات، مثلا: أنت تعترف بوجود النمل وتؤمن به، إلا أنّ التغيير الذي يحصل لك سيكون مختلفًا عن التغيير الذي يحصل حين اعترافك ومشاهدتك للأسد. لأنّ وجود النمل لا يغيّر في الإنسان شيئَا، أمّا وجود الأسد فيختلف تمامًا، فعند

(1) المائدة: من الآية 83.
(2) الإيمان لابن منده 1/ 173.
(3) المائدة: 83.

الإحساس بوجوده يتيقظ الإنسان من قمته إلى أخمص قدميه. ولقد حصلت لي واقعة تبين المثال السابق: «كنت يومًا في حديقة الحيوانات فرأيتُ أن الزائرين يركضون في اتجاه الباب الرئيسي، وعندما سألت عن الأمر، عرفت أن أسدًا قد فَّر من قفصه، وشاع هذا الخبر بين الزائرين؛ والجدير بالملاحظة أن الناس الفارين لم ير أحد منهم الأسد ولكنهم بمجرد سماعهم للخبر أصبح هذا حالهم، فعندما يحسّ الإنسان بوجود الأسد، يكون هذا حاله، فما شعوره لو أحس بوجود خالق الأسد؟! فإذا أصاب الإنسان الهلع عند إحساسه بوجود الأسد فإن اضطرابه وهلعه سيكون أقوى عند شعوره بوجود (الله).

لو آمن الإنسان بوجود الله إيمانًا حيًا شعوريًا ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾[1]، لارتعدت فرائصه، وانخفض صوته من خشية الله، وتوقفت قدماه، وانضبطت حياته، وسيكون شاعراً بأن الله مراقبًا له في ليله ونهاره، ومسيطرًا عليه بصفة كلية. بعض المفسرين عرّفوا المؤمنين بهذه الألفاظ فقالوا: «يؤمنون **بالغيب كما يؤمنون بالشهادة**»[2]، وحال المؤمن في الدنيا شبيه بحال الذين يقفون بين يدي ربهم يوم القيامة، فهذا الحال يكون للمؤمن في الدنيا دون رؤية الله بالعين المجردة فيرى في الغيب الشهادة، وغير المؤمن حين يقف بين يدي الله يوم القيامة يرتعش ويصيبه الهلع والخوف، بينما المؤمن يعيش نفس الحالة في الدنيا. في يوم القيامة الملائكة تحشر الناس في ميزان العدل الإلهي، أما المؤمن فيوقف نفسه في هذا الميزان في هذه الدنيا، والحقيقة أن ما سيجري مع غير المؤمن يوم القيامة من شدة المحاسبة يعيشه المؤمن في هذه الدنيا وتأمل قول الله تعالى: ﴿**لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۞ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾[3]، وهذه الرقابة والمحاسبة الصارمة من النفس اللوامة في الحياة الدنيا هي الإيمان بعينه.

(1) الأنفال: من الآية 24 .
(2) تفسير ابن كثير ص 47.
(3) القيامة: 1، 2 .

مِن جوانب الإيمان

للإيمان جوانب متعددة لا نستطيع حصرها في هذه المقالة، ولكن سنتناول بعض الجوانب الرئيسية التي توضح لنا حقيقة الإيمان، وهذا مثال على أحد الجوانب في ضوء القرآن الكريم. ففي سورة (إبراهيم) شبّه إيمان المؤمن بـالشجرة فقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ**﴾[1]، هناك ميزة خاصة بالشجرة، وهي أنها تنمو باستمرار وتعرفون أنه لو تركتم حجرًا في مكان ما فإنه سيبقى على حالته الأولي أي كما هو لا ينمو، وكذلك الذهب والفضة، ولكن في دنيا الله الشجرة شيء عجيب وغريب، ولها صفة خاصة تتجلي في نموها المستمر من البذرة إلى الجذر، ومن الجذر إلى الأغصان، ومن الأغصان إلى الأوراق ثم تكمل شجرة كاملة، يستمر نموها من البذرة إلى أن تصير شجرة كاملة .

هذه الصفة الخاصة بالشجرة، تخص أيضًا المؤمن في الدنيا وتؤكد الآية الموجودة في سورة (إبراهيم)، أن هذه الصفة مشتركة بين الشجرة والمؤمن، فإيمان المؤمن ينمو باستمرار يبدأ من البذرة إلى أن يصل إلى شجرة كاملة، والإيمان شيء ينمو ويزداد وليس شيئا جامدًا، فكيف ينمو الإيمان؟

إن صورة نمو الإيمان شبيهة بصورة نمو الشجرة، فالشجرة تتغذي من الأرض والهواء بالمعادن والغازات والماء، وتجعل من هذا الكون مائدة غذائها، حتى أن الغارات السامة والمضرة كالكربون تدخل في الشجرة فتحولها الشجرة إلى طعام، وهذا الكربون يلج الشجرة وهو غاز سام ومضر فتحوله الشجرة إلى أكسجين مفيد ونافع، وهذه معجزة عجيبة من صنع الله تعالى، وهذا حال المؤمن في الدنيا، يحوّل كل واقعة مشاهدة في بيئته إلى طعـــــام، كل ما يلـــــج في داخل المؤمن ـــ سواء على شكل صوت عبر أذنيه أو مشاهدة من خلال عينيه أو من طريق آخر ـــ فإنه يتحول إلى طعام، والإيمان هو السبب في ذلك، فكيف يكون ذلك ؟

---

(1) إبراهيم: 24.

تأملوا هذا جيدًا كل الأشياء الداخلة إلى باطن الإنسان المؤمن تكون مادية ثم تتحول في داخله إلى شكل إيماني، فعندما تصيبه مصيبة يصبر عليها بدل الجزع منها ذلك أن المصيبة تحولت في داخله إلى صبر، أي أنها تحولت في مصنع الإيمان إلى حالة نفسية ثابتة، بينما المصيبة في عملها الظاهري تثير خبايا النفس، لكن مصنع المؤمن يحول خبايا النفس، وهكذا ينجح المؤمن في الدنيا ولا يفخر بهذا النجاح وإنما يشكر الله على عطائه، فالنجاح عامة يدفع الناس إلى الافتخار، فكل إنسان ناجح يتحول إلى نفسية افتخارية، ولكن عندما يدخل النجاح في مصنع المؤمن يتحول إلى شاكر بدل مفتخر لأن نفسيته (إيمانه) يحول ذلك النجاح إلى شكر. إذن كل الأشياء المسببة للبعد عن الله تقرب المؤمن إلى الله، حتى لو تأذى المؤمن من أحدٍ فإنه يعفو، فالحادثة التي تحرك نار الانتقام عند عامة الناس توصل المؤمن إلى ظل رحمة الله فعندما ينظر المؤمن إلى ما بين السماء والأرض وتلج هذه المشاهدات إلى خانة ذهن المؤمن تتحول إلى آية من آيات الله، فظاهر هذه الأشياء مادية ولكن عندما تدخل إلى ذهن المؤمن تتحول إلى آيات الله الخالق في مرآة المخلوقات. أذن فالمشاهدة تخلق عند عامة الناس ذهنية نفعية واستثمارية، ولكن بعد دخولها في مصنع المؤمن تتحول إلى ذكر الله تعالى، وهكذا كل مشاهدة تعطي للمؤمن غذاء ربانيًا، وتقوي إيمانه ويقينه، ففي سورة (إبراهيم) التي قرأت آنفًا صورة أخرى للإيمان حيث شبه المؤمن بالشجرة الطيبة التي تثمر ثمارًا في كل موسم ﴿**تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾[1]، فمن المعروف أن للشجرة المثمرة قاعدة وهي أنها تثمر عندما يحين موسم الإثمار، فكذلك حال المؤمن في دائرة الأخلاق والعمل، فشعور المؤمن الحي واعترافه بحضور الله ومراقبته إياه، ويقينه بوجوب الوقوف أمام العدالة الإلهية بعد موته، كل هذا يجعله ذا حساسية ومسئولية حتى أنه لا يفعل إلا ما يقتضيه إيمانه، فعندما تعترضه أية واقعة فإنه لا يظهر منه إلا ما يظهر من رجل مؤمن بجلال الله تعالى.... فعندما تظهر الحقيقة للمؤمن فإنه يقبلها ويقربها بقلب واسع، ولا يمكنه الإنكار بعد ظهور الحقيقة وإنما يدفعه إيمانه الداخلي إلى القبول والاعتراف والإقرار بالحقيقة والعمل بمقتضاها، وهكذا عندما يُرفع النداء لعبادة الله تعالى يسجد أمام ربه تاركًا كل شيء، فبعد نداء الله ينسي نداء نفسه، وينسي تجارته عندما

(1) إبراهيم: 25.

يقترب وقت نداء الله لا يمكنه عدم تلبية نداء الله عندما يدعوه، وإيمانه ضمان لتلبية نداء الله وسعيه نحوه، وهكذا في قضية المال فعندما تطلب من المؤمن حصة الله في ماله يؤديها دون تأخير، وعندما يطالبه صاحب الحق بحقه يعطيه إياه بكل أنصاف وعدل، وعندما يعد شخصًا ما يفي بوعده ولا يشعر بالطمأنينة والاستقرار بدون ذلك .

وهكذا يظهر موقف إيمان المؤمن على شكل نور رباني، ويتجلى في كل معاملة بصورة ربانية، وفي كل حين يفعل ما ينبغي أن يُفعل ولا يقوم بما لا ينبغي أن يقوم به، والخلاصة أن الإيمان ليس حقيقة جامدة، وإنما هو فكر متدفق، فالإيمان نعمة جليلة القدر تستقر في صدور عباد الله، فهذا هو الإيمان الذي يتلقـــــاه الإنسان فيمتزج بحياته ويكون نورًا ينير جسده بكامله، ولونًا يلون جميع معاملاته فالإيمان هو أسم لحصول وجود الله، الإيمان أن يستغرق الإنسان في عظمة الله، وهو ميل شعور الإنسان إلى حمد ربه، والوصول إلى الله في حياته الدنيا، وهو الهزة التي تحدث في داخل الإنسان فتوصله إلى معرفة الله، والوصول إلى معرفته كالحصول على شيء لا يقدر بثمن، فماذا يمكن أن يفقد الإنسان بعد ذلك؟!.

الإيمان المطلوب

يقول الله تعالى: ﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا**﴾[1]، في زمن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان اليهود يسكنون في المدينة (يثرب) وما حولها، وهذه الآية نزلت فيهم، فهؤلاء اليهود يؤمنون بالأنبياء الذين جاءوا من قبل، وخاصة الذين جاء ذكرهم في كتبهم ولكنهم لا يؤمنوا بمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذي ولد في عصرهم. أما أصحاب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقرّون ويؤمنون بجميع الأنبياء، وهذا هو الفرق بين إيمان اليهود وإيمان الصحابة، فلوا أراد اليهود أن يكونوا مؤمنين عند الله يجب عليهم الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ــ كما يؤمنون بالسابقين وإلّا فلا.

يبدو لنا من خلال هذه الآية الكريمة أن الإيمان ينقسم إلى قسمين:

(1) البقرة: 137.

❊ إيمان مثل إيمان الصحابة.

❊ إيمان مثل إيمان اليهـــــــود.

﴿**فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا**﴾[1]، فالمطلوب عند الله هو إيمان الصحابة، أما إيمان اليهود فغير مقبول. فما الفرق بينهما؟ ليس الفرق في كمال قائمة الأنبياء عند الصحابة رضي الله عنهم وعدم كمالها عند اليهود، إنما الفرق في الحقيقة وليس في القائمة. اليهود يؤمنون بإبراهيم ويعقوب وموسى عليهم السلام وهؤلاء الأنبياء كانوا سابقين وكانوا في نظر اليهود أعظم الأنبياء، فعندما يولد اليهوديّ كان يسمع أسماء هؤلاء الأنبياء ويحفظها ويعتبرهم من أعظم الأنبياء، أما معاملتهم للنبي صلى الله عليه وسلم فكانت على عكس هذا تمامًا، فعندما تعرّفوا علي النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة كان في تلك الفترة مجرد رجل قد أُخرج من مكة، خلافًا للأنبياء السابقين لبني إسرائيل الذين كانوا محط التقديس والتعظيم لديهم بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم في نظرهم شخصًا عاديًا، ولهذا لم يعترف اليهود بنبوته. فكان انطباعهم الأول حول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو انطباعهم الأخير.

أما معاملة الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ فتختلف، وهي عكس ذلك تمامًا، فالصحابة ــ رضي الله عنهم ــ رأوا النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ مثل ما رآه اليهود، ولكن اليهود، اكتفوا بالنظرة السطحية للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ، بينما تعمق الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ في هذه النظرة حتى وصلوا إلى الحق. كان اليهود ينظرون إلى الرسول محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ من حيث الظاهر بينما الصحابة نظروا إلى حقيقة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

اليهود رأوا (محمدًا بن عبد الله)، أما الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ فرأوا محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ هذا هو الفرق الجوهريّ. كان إيمان اليهود تقليديًا، أما الصحابة فإنهم آمنوا بعد أن عرفوا، وانشرحت صدورهم للإيمان، فالصحابة ــ رضي الله عنهم ــ عرفوا الجوهر بينما اليهود لم يعرفوا هذا الجوهر فبمجرد النظرة الظاهرية وصل الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ إلى

(1) البقرة: 137.

الحقيقة، وعرفوا الحق، وآزروه ونصروه، أما اليهود فقد عجزوا عن معرفة الحقيقة بنفس النظرة. فاليهود لا يستطيعون معرفة الحق دون اقترانه بالعظمة الظاهرية، فهذه خاصية إيمان اليهود، أما الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ فيعرفون الحق ولو جاءهم مجردًا من هذه العظمة الظاهرية. وخلاصة القول إن كيفية إيمان اليهود تعتبر تقليدية، بينما كيفية إيمان الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ هي معرفة جوهرية (انشراح الصدر). فهذا هو الفرق الذي يجعل طائفة مؤمنة عند الله وطائفة أخرى غير مؤمنة... واليوم أيضًا، ذلك الإيمان (انشراح الصدر) هو الإيمان الحقيقي الذي يحيي في الإنسان من جديد النظرة لرؤية الحقيقة. وهذا الفرق ليس بسيط بل أساسي وجذري. وبهذا تحيا تلك الخصوصيات والصفات العليا التي نراها في حياة الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ فهذه الصفات التي نراها في حياة الصحابة هي نتيجة لهذا الإيمان.

والآن لنعرض لبعض الجوانب من حياة الصحابة من اجل إجراء مقارنة لنوعية إيمانهم، ولفهم هذه القضية.

إيمان اليهـــــــــود: عبارة عن عقيدة جامدة، وهو شيء من الأشياء الكثيرة الموجودة في مخزن ذهن الإنسان، وهو جزء من كلّ، مثاله (الخنصر) أو الأصبع السادس الزائد في اليد لدى البعض.

إيمان الصحابة رضي الله عنهم : هو تلك الفكرة والنظرة التي تتعمق داخل الإنسان، لينظر بعد ذلك إلى جميع الأشياء من هذه الزاوية الخاصة، ويجد في كلّ شيء نور إيمانه، ويكون إيمانه شاملاً له وليس جزءًا منه. فعندما يجد أي إنسان بعد التعميق الحقيقة فإنها تصبح تفكيره، والإيمان أيضًا بنفس الشكل يصبح حقيقة عظمية، فهذا الإيمان الحي والحقيقي حين يباشر شخص ما **نورا يقذفه الله في قلب العبد** ، فليس من الممكن إلا أنّ يسيطر على تفكيره، وحماسه. ولقد كان إيمان الصحابة رضي الله عنهم بنفس الشكل إيمانًا حيًا فإيمانهم يسيطر على تفكيرهم، وكانوا يرون الإيمان في كل شيء فكلّ ما يمرّ أمام نظرهم فإنه يتشكل في قالب إيمانهم، وكل مشاهدة تدخل خانة ذهنهم فإنها تصبح ذريعة لعبرة إيمانية.

وبهذه المناسبة نورد قصة لصحابي: فقد روي أن أحد الصحابة كان جالسًا أمام بيته، وأثناء جلوسه مرّت أمامه عربة يجرها ثوران، وأثناء سير ها جلس أحد الثورين متوقفًا عن السير، وبقي الثاني واقفًا، فماذا حدث مع الذي جلس؟! لقد ضربه صاحب العربة بالعصا فرآه الصحابي، فماذا قال هذا الصحابي؟ قال:» إن في هذا لمعتبر « ويعني بذلك، إن الحيوان الذي كان يمشي تجنب الضرب، والذي أظهر الكسل ضُرب، ونفس القضية ستكون مع الإنسان في الآخرة، فالذي يؤدي واجباته نحو ربهّ سينجو، والذي لا يؤدي واجبات الله سيعاقب، فقصة العربة هذه من حيث الظاهر كانت مجرد واقعة دنيويةّ، ولكنّ الصحابيّ رأى فيها مشهد من مشاهد الآخرة، ففي هذه المشاهدة المادية رأى الصحابي صورة الآخرة، فقد دخلت هذه المشاهدة المادية في خانة الصحابي فأصبحت واقعة روحية.

خذوا واقعة أخرى: من الأشياء الصعبة ــــ بالنسبة للإنسان ــــ في هذه الحياة هو الاعتراف بفضل الآخرين وكمالهم، والإقرار بخصوصياتهم، فحال الجميع هو الاهتمام بأنفسهم دون رؤية حسنات الآخرين، ولكن المؤمن الحق بعيد عن هذه النفسية.

في الحقيقة، الإيمان هو اكتشاف عجز الذات أمام كبرياء الله وعظمته، وعندما يفوز الإنسان بهذا الإيمان ــــ بعمق ــــ فنتيجته اللازمة هي أن تصبح ذاته صغيرة في نظره، فإيمانه يُجرد منه أنانيته، وبه تتكون مادة الاعتراف في المؤمن وتصبح في أعلى درجتها. فالمانع من الاعتراف بالآخرين هو حب الذات، والذي يعرف قدر نفسه فما المانع له من اعترافه بفضائل الآخرين وكمالهم؟

لبيد، كان صحابيًا مشهورًا، وشاعر العرب، وكان معروفًا بشعره، ولكن عندما سمع القرآن الكريم كيف أصبح حاله؟ إنه بمجرد أن سمع القرآن الكريم آمن به، واعترف بعظمته، وزاد على اعترافه أن ترك نظم الشعر. سأله أحدهم: لماذا تركت الشعر؟ فقال: «أبعد القرآن؟!» في الظاهر هي جملة قصيرة، لكن مضمونها أصعب من حمل جبل (الهمالايا). ولمعرفة قول لبيد هذا، فإننا سنعود إلى الوراء تقريبًا (1400) سنة. فحين قال لبيد هذه المقولة، مازال القرآن الكريم يتنزل آنذاك وكان المؤمنون بالقرآن مضطهدين، ولم تستقر عظمته كما استقرت فيما بعد، فتلك العظمة التاريخية التي ثبتت فيما بعد لم تثبت في عهد لبيد لأن القرآن كان في

بداية نزوله. في ذلك الوقت كان هذا القول: «أبعد القرآن» صعب جدًا. فمثل هذا القول يتطلب إيمان الصحابة الذي يدفن أنانية الإنسان لكي يستطيع رؤية الآخرين بوضوح، وهذا يتطلب نظرة ترى المستقبل في الحال، وهذا عمل صعب. فهكذا يحي الإيمان صفاء داخل الإنسان. والآن خذوا قصة أخرى: الصحابي الجليل ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ ذات مرّة غضب على غلامه فضربه بالعصا، وإذا بالنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يمرّ من ذلك المكان فرأى ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ يضرب غلامه فقال له: «**اعلم يا ابن مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام**»، وعندمــا سمــع ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ هذا التنبيه من الرســول ــ صلى الله عليه وسلم ــ سقطت العصا من يده. فماذا يؤخذ من هذا القول؟ ولماذا سقطت العصا من يد ابن مسعود؟ نجيب علي ذلك: بأن ابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ كان يرى هذه القضية في إطار علاقة الإنسان بالإنسان، وبعد هذا التنبيه أصبح ينظر إليها في إطار علاقة الإنسان بالله، فعندما نظر إليها في إطار علاقة الإنسان بالإنسان كان يجد فرقًا بينه وبين غلامه، فكان لسان حاله يقول « أنا المالك أو السيد وهو الخادم » « أنا القوي وهو الضعيف »،« أنا الغني وهو الفقير »،« أنا ذو مكانة وهو عكس ذلك »، هذا هو الفرق وعندما تغيرت نظرته إلى إطار علاقة الإنسان بالله، عرف بأنه لا فرق بينه وبين غلامه فوجد نفسه في مقام غلامه، لأنه لا فرق بينهما عند الله، لا فرق بين السيد والخادم عند الله تعالي. يوجد فرق ـ دائمًا ـ بين الناس، لذلك عندما ننظر إلى القضية في إطار علاقة الإنسان بالإنسان نجد فرقًا بين الناس، وهذا الفرق هو سبب جميع أنواع الفساد والظلم فالذي يحسّ بالتّكبر يظلم الضعفاء والصغار. أما إذا نظرنا إلى القضية في إطار علاقة الإنسان بالله فإن الفروق ستنعدم لأن كل الناس في نظر الله ضعفاء فقراء وهذه النظرة تقضي على طبيعة الظلم والتطاول في نفسية الإنسان. فهذا هو حال الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ، إنهم كانوا يعتبرون جميع القضايا قضايا الله، فعندما يتعاملون مع إنسان ما فإنهم يظنون أنهم يتعاملون مع الله، ولهذا كفوا أيديهم وأرجلهم عن الظلم والتطاول، وكانوا يحسون بأن الله مع الجميع. إنّ إيمان المسلمين الآخرين يكون صحيحًا إذا كان حيًا مثل إيمان الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ وإذا غلب عليهم الشعور بعظمة الله، وتعاملوا مع الناس وهم يستحضرون عظمة الله في معاملتهم، لأن الإنسان ضعيف، ولكن الله قوي.

وهذه قصة أخرى: من غزوات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غزوة بني المصطلق وقد وقعت في السنة الخامسة (5)هـ، وبعدها حاول منافقو المدينة نشر خبر (الإفك) حول عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ لقذفها، فنزلت آية قرآنية من سورة براءة تبرئ عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ بصفة كلية، وقد كان في المدينة أحد المسلمين المهاجرين اسمه (مسطح بن أثاثة) تأثر بادعاء المنافقين وشاركهم في هذا الإفك (التهمة) وكان من القرابة البعيدة لأبي بكر الصديـــق ـــ رضي الله عنه ـــ وكان أبو بكر الصديق ـــ رضي الله عنه ـــ يساعده كل شهر نظرًا لفقره، ولمّا كانت عائشة ـــ المفترى عليها ـــ بنت أبي بكر الصديق، تأثر أبوبكر الصديق ـــ بالطبع ـــ من مسطح بن أثاثة بعد هذه الواقعة، وأقسم ألا يساعده، فنزلت بسبب هذا آية تقول : ﴿**وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ**﴾ [1]. وبعد أن سمع أبوبكر الصـــديق ـــ رضي الله عنه ـــ هذه الآية، قال: «بلى والله أني لأحب أن يغفر الله لي»، وواصل تقديم المساعدة التي كان يعطيها لقريبه (مسطح بن أثاثة)، وجاء في بعض الروايات أنه زاد عليها. هذه الواقعة تبين لنا طريقة الصحابة رضي الله عنهم عند التطاول والشكوى فشكواهم لم تصل إلى درجة البغض والانتقام ولم يكن لها أثر في قلوبهم، ولم يكونوا ظالمين لمصدر شكواهم ولم يجوّزوا لأنفسهم الانتقام منهم. فالصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ كانوا ينظرون إلى القضايا بنظرة الآخرة، وكانوا يعفون عن خطايا الآخرين ليعفو الله عنهم.

فمسألة الآخرة سيطرت على عقولهم وأذهانهم حتى رأوا أن كل القضايا الأخرى بسيطة وكانوا مستعدين لترك كل شيء في سبيل الآخرة، ونسيان همومهم، ولذلك فهم قدوة في الأخلاق العليا، فقابلوا الظلم والمعاملة السيئة بالحسنى، فهم يدعون بالخير للذين آذوهم، وكانوا رحمة لهم.

هذا الإيمان هو إيمان الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ وهو المطلوب عند الله، فالذي يريد أن يقبل الله إيمانه، فعليه الاقتداء بالصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ وتقليدهم في الإيمان. وفيما يتعلق بالإيمان هناك قصة أخرى تروى عن الصحابي عبد الرحمن بن عوف، والصحابي خالد بن الوليد. فقد حدثت بينهما خصومة في قضية ما، واستمرت مدة طويلة، أثناء هذه الفترة جاء رجل إلى عبد الرحمن بن

(1) النور: من الآية 22.

عوف، وبدأ يضــــع اللوم على خالد بن الوليد ــــ لكي يرضـــــي عبد الرحمن بن عوف ــــ وأراد الانتقاص من خالد بن الوليد في أمور الدين. فعندما سمع عبد الرحمـــــن بن عوف كلامه، ردّ عليـــــه غاضبًا: «مه، فإنّ ما بيننا لم يبلغ ديننا»، يعني أن القضية التي كانت بينهم دنيوية وليست دينية، ولا يجب أن نجعلها مقياسًا نقيس به إسلامنا.

كان مزاج الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أنهم إذا تشاجروا حول قضية ما فإنهم لا يتعدونها إلى أخرى. فالخصومة في مسألة ما يجب ألاّ ننقلها إلى خصومة في إطار آخر أو في قضية أخرى، فالصحابة ــ رضي الله عنهم ــ كانوا مقيدين بالآية التي جاءت في القران الكريم: ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[1]، وخلاصة القول، فإنّ الإيمان قسمان وفقًا للقرآن الكريم:

*** إيمان اليهـــــــــود.**

*** إيمان الصحـــابة.**

فمثل إيمان اليهود إيمان تقليديّ متوارث كمثل الحجر الجامد الذي لا حركة فيه، وبهذا النوع من الإيمان لا يكون عند الإنسان حماس للعمل أو سمو الأخلاق، ومثل هذا الإيمان لا يدخل في قلوب الناس، وهذا الإيمان يكون في جانب وحياة الناس في جانب آخر.

وعلى العكس من ذلك، فإيمان الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ إيمان معرفة وكشف وانقلاب فكري فعندما يدخل هذا الإيمان في قلب الإنسان فإنه يحركه كليًا، ويتأثر كيانه بنور الله وتتيسر له ـ نتيجة لذلك ـ كل الأمور، سواء في إطار العمل أو الفكر، ويستشفّ ما وراء الظواهر وينظر إلى الحقيقة لمجرد النظرة الأولية، وتصبح كل الأمور التي حوله خادمة أو تابعة لإيمانه، ويكون لهذا الإيمان شأن كبير حتى أنه تظهر له الأمور كلها بسيطة جدًا، ويبتعد عن نفسية

(1) المائدة: 8.

الحقد والانتقام ويجبره إيمانه على العدل دائمًا، ولا يحيد عن الطريق المستقيم

.

الوعي الفكري الصحيح

لقد وردت في القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(1)، وقد ورد نفس المعنى في اليهود فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾(2)، فلماذا هذه الخيرات والنعم لمجرد الإيمان بالوحي؟ بعض الناس يحسب أن هناك طلاسم سحرية تكمن في كلمة الإيمان، وتفتح أبواب الكنوز بمجرد حركة اللسان كما كان باب الكنز يفتح بكلمة (افتح يا سمسم) في الأسطورة المروية عن سالف العصر والأوان.

ولكن هذه الفكرة لا تشوبها شائبة من الحقيقة، فلو كانت هذه البركات تتوقف على حركة اللسان فإن المسلمين يلهجون بكلمة الأيمان اليوم أكثر بكثير من قديم الزمان لأن اللاهجين بكلمة الإيمان يصل عددهم إلى مئات الملايين في العالم، ولكننا نعلم أن المسلمين رغم هذه الكثرة والأغلبية الساحقة لا يجدون سبيلاً إلى بركات السماء، ولا يعرفون طريقًا إلى بركات الأرض.

والحقيقة أن الأمر ليس بهين وليس كما يفهمه الناس، فإن كلمة الإيمان في هذه الآيات ترادف الثورة الفكرية، والذين آمنوا بمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ من القرون الأولى كانوا يعرفون أن الإيمان في الواقع إرادة فكرية وعزم صميم مصدره الشعور، ويمكن إدراك هذه الحقيقة بسهولة إذا ما رأينا المدارك العملية للإيمان بالنسبة لليهود أو للعرب المشركين.

ونحن الآن عندما نذكر اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ نتذكر ذلك الرجل الذي أُحيطت به هالة العظمة في تاريخ يمتد إلى أربعمائة وألف سنة،

(1) الأعراف: 96.
(2) المائدة: 66.

ولكن ذلك الرجل لم يكن إلّا (محمد بن عبد الله)، إبّان بعثه بمكة والتاريخ المجيد لم يكن قد ظهر بعد.. بل كان مستورًا وراء حجب المستقبل، وكان الناس ينظرون إليه كشخص عادي. أما اليهود والمشركون فكانوا يعتزون بدين صلب عوده واستقرّ مكانه.

لقد كان اليهود يعتنقون دينًا يتألق تاريخيه بأسماء الرسل مثل موسى وداود وسليمان ــــ عليهم السلام ــــ وقد انغرست هذه الأسماء في أعماق الأذهان منذ فترة طويلة من التاريخ. وكذلك كان حال المشركين العرب فقد كانوا ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم وإسماعيل ــــ عليهم السلام ــــ وبالتالي كانوا يعتبرون أنفسهم وارثي الكعبة ودين إبراهيم الحنيف، وهذه اعتبارات كان لها وزن وأثر وقد بلغت من الأهمية مكاناً كبيرًا ومجمل القول أن نبي الإسلام كان يقف في بداية انطلاقة تاريخية في حين أنّ اليهود والعرب كانوا يقفون في ضوء شعاع التاريخ الوهاج.

وبناءً على هذه الحقيقة لم يكن الإيمان برسول الإسلام الذي ولد قبل أربعة عشر (14) قرنًا والوقوف إلى جانبه أمرًا بسيطًا وميسورًا، بل كان خروجًا عن دين استقرت دعائمه ودخولاً إلى دين لا يعبأ به أحد، وليس له تاريخ مشرق القسمات والملامح. لقد كان الأمر تخليًا عن صداقة تتذرع بالمصالح وتتلفع بردائها إلى صداقة لا علاقة لها بالمصالح والمنافع، وكان الأمر في الحقيقة ــــ أيضا ــــ ارتفاعًا عن الأمجاد الرخيصة المادية وتطلعًا للمستقبل المرتقب الذي يتسامى فيه الإنسان على الآلهة الملموسة إلى الإيمان برب غير ملموس.

لقد كانت هذه الخطوة هزة عظيمة، ومثل هذا الحادث لا يحدث في حياة الإنسان وكأنه خروج من غرفة ودخول لغرفة أخرى، بل يحدث انقلاب في التفكير، فينبذ الإنسان شيئاً بإرادته ــــ أيضًا ــــ وتتحرك فيه إرادته وتستجاش كوامنه وتتموج سواكنه، ليمشي في طريقه لعبور جسر من التضحيات بكل غال ورخيص، وللوصول إلى طريق آخر بنجاح يهتز فيه كيان الإنسان كما تهتز الشجرة التي تحركها موجات من الأعاصير. فإذا ما اختارت مجموعة بشرية فكرة أو دعوة على هذا النحو الثوري فسوف ينبثق ــــ من جراء هذا ــــ إلى حيز الوجود وعلى سطح الأرض شعب جديد في أخلاقه وسلوكه وحركته ويختلف عن أبناء جنسه

الآخرين، ومن هؤلاء الأفراد يتكون مجتمع جديد غير مسبوق النظير، يكون مؤهلاً ليأتي بالعجائب وليصنع المعجزات على وجه الأرض.

عندما نادى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العرب إلى الإسلام كانت الأديان الأخرى موجودة ومتأصلة في المجتمع وكانت المصالح مربوطة بها ومعتمدة عليها، ولكن الإسلام لم يكن في ذلك الوقت إلا مجرد فكرة أو دعوة لم تترجم إلى الواقع بينما كانت الأديان الأخرى ــ كما ألمحنا ــ مراكز منظمة راسخة الجذور، وفي مثل هذه الحال فإن الالتزام بالإسلام يعني التضحية بكل شيء والتنازل عن كل مصلحة في ذلك المجتمع المحارب للفكرة. هذا بينما كانت المصالح مصونة بالانتماء إلى أديان أخرى حيث يكون معتنقها شخصًا محترمًا في المجتمع، لكن هذا المحترم ما إن يتخذ الإسلام عقيدته ومنهجه حتى يصبح شخصًا غير محترم لأن دينه لم يكن قوى ساعده ولم يصلب عوده، بل هو دين يحرمه من المنافع الذاتية والقومية.

وفي هذه الظروف كان اعتناق الإسلام يحتاج إلى عزم أكيد وقرار حازم جريء ولهذا كان الذين اعتنقوا الإسلام في تلك المرحلة إنما اعتنقوه بسبب هزة شديدة حدثت في أغوار نفوسهم، فكان هذا الاعتناق انتفاضة فكرية بالنسبة لهم، إذ بدأوا يفكرون في إعادة النظر في معتقداتهم القديمة المتوارثة. حينئذ اتخذوا القرار وعقدوا النية، فنبذوا تلك المعتقدات الجاهلية وراء ظهورهم وعزموا على ألا يرجعوا إليها مهما كانت الظروف، واختاروا دينًا عضّوا عليه بالنواجد.

وبهذا العمل مزقوا ستار العصبية وغضوا النظر عن المصالح، وأهملوا المنافع المادية الرعناء، وخاطروا بأنفسهم، وأصبحوا منعزلين عن عشائرهم وقبائلهم وأسرهم ومجتمعهم، ثم هاجروا من أرض التقليد الميت عن وعي واستوطنوا ــ عن إرادة ــ أرض العقيدة الحية. أجل: لقد كان الإسلام بالنسبة للمسلمين في العهد الأول انقلابًا فكريًا، لذلك فقد ولد هذا الانقلاب مجموعة بشرية انقلابية، بينما أصبح الإسلام بالنسبة لمعظم مسلمي اليوم عقيدة ميتة لا حراك فيها، وصار الأفراد الذين ينتمون إلى هذا الإسلام يكوّنون مجموعة بشرية خاملة كالجثة الهامدة، فليس فكرهم حيًا ولا عملهم منتجًا.

لقد جاء في الحديث الشريف «بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»[1]، فإذا أمعنا النظر في هذا الحديث فسنرى أن التاريخ قد عاد القهقري إلى ظروف الإسلام الأولى فالبون شاسع في عصرنا بين الدين المحفوظ في القرآن والدين المتبع بين المسلمين في هذا الزمان، فلذا سمى أولهما: (الدين الكتابي) وآخرهما: (الدين الاجتماعي)، وإن الدين الحقيقي لنلمسه فقط في الكتاب والسنة. لقد أصبح هذا الدين غريبًا كما كان، فعاد كما بدأ، بينما أضحى الدين الموجود والمنظور في المجتمعات والبيئات المعاصرة مجرد هيئة منظمة اجتماعية، كما كانت الأديان الأخرى إبّان البعثة. ونحن نرى أن الحركات الإسلامية القوية في هذا العصر تخلد إلى أرض هذا الإسلام المنظور الملموس، ولو أنها تتباين وتختلف في شعاراتها وهتافاتها بين المطالبة بإسلام جزئي أو إسلام كلي. ورغم هذا الاختلاف في المطالب فإن جميع هذه الحركات نشأت ونمت على سطح الدين الاجتماعي الموجود وليس على سطح الدين الكتابي الحقيقي، فأصبح إسلام اليوم مطية وسندًا للوصول إلى القيادة والسيادة، أصبح محلاً تجاريًا لجلب المنافع، وسوقًا من الأسواق يمكن بها استدرار الأموال والحصول على ما لا يمكن إحرازه من الأسواق الدنيوية العامة. إنه يمكن بالإسلام تحريك العواطف والحصول على التبرعات وملء صناديق النذور، كما يمكن بالإسلام حشد جمع غفير من الناس والإدلاء بالكلمات والخطب الرنانة بين أيديهم، والغريب أن اليهود كانوا على نفس المنهج الذي نرى المسلمين الآن سائرين عليه في كل مكان.

ومن جانب آخر نشاهد الدين الحقيقي قد أصبح مغلفًا بين دفتي الكتاب ولا وجود له إلا باعتباره صورة فكرية ومجرد خيال، لقد أصبح الدين غريبًا بين أتباعه والمتحمسين له. وفي مثل هذا الواقع المرير عندما يكتشف شخص مسلم الدين الإسلامي الحقيقي سيكون على حساب شعبيته ومكانته في المجتمع فيحسبه الناس مبتدعًا دينًا جديدًا، فلا توجه إليه الدعوة لحضور المؤتمرات الدينية، ولا يُرجى منه أن يتفضل مشكورًا بإلقاء كلمته في (الاحتفال القرآني) ولو كان قد أفنى عمره في دراسة القرآن الكريم والتأمل فيه، ولن يقدم له منصب (شيخ الحديث) في معهد من المعاهد الدينيـــة، حتى ولو كان هو شخص (البخاري ومسلم)

(1) الجامع الصحيح للإمام مسلم –متن مرتبط بشرحه 1/ 350.

أو كان قد أفنى حياته في دراسة كتب الحديث وعلوم السنة، ولن يعد من صفوة العلماء الربانيين حتى لو كان في مكانة رفيعة من الورع والتقوى، وكرّس حياته للإسلام وخدمته. ومردّ ذلك أن الشخص يكون ثابتًا على دين الكتاب والسنة، وناقمًا على الدين الاجتماعي الذائع في كل مكان. ذلك في عصر أصبح فيه دين الكتاب والسنة غريبًا بين أتباع الدين الاجتماعي التقليدي أعني هذا الشيء الذي يحسبه دينًا بينما هو مجرد مظاهر وصور وليست من الحقيقة الربانية العميقة في شيء. إن هذا الدين مأخوذ من التقاليد والعادات وليس نابعًا من مصدري الوحي (الكتاب والسنة).

الضربة القاضية

(لعبة كيرم) تعد من الألعاب المنزلية المعروفة وتلعب على لوحة خشبية يرتب في وسطها تسعة عشر قرصًا يشبه في حجمه عملة القرش أو الروبية، والمبادر في هذه اللعبة يضرب بالقرص الضارب من زاوية اللوحة على جميع الأقراص. ولئن كانت هذه الضربة تقع على نقطة واحدة لكنها إذا كانت ناجحة تسمى (عمل الأستاذ) أو (ضربة المعلم)، إذ تحرك كل قرص من مكانه ليدخل الشبكة.

والحق أن عملية إحياء الدين الحقيقي تحتاج إلى مثل هذا العمل الأستاذي أو إلى (ضربة المعلم) حتى يحرك هذا العمل الكبير (ضربة المعلم) كل شخص من مكانه ويثير فكره ويلهب عقله فيتمكن من أن يكون مؤهلاً للتفاعل مع الدين الحقيقي الموجود بين دفتي الكتاب والسنة الشريفة.

ولقد كان هذا هو نفس الأمر الذي وقع في فترة بعثة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإن إعادة هذا الواقع إنما هو التجديد الحقيقي للدين في هذا الزمان، وليست حقيقة تجديد الدين إلّا إعادة عمل النبوة، فقد كان النّبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد أحيا في عهده دين الله مقابل هيكل جامد للأديان الأخرى، ويحتاج دين الله في هذا الزمان إلى شخص يهضمه روحًا وقلبًا ويتمثله حياة، مقابل هيكل قائم للإسلام رائج بين المسلمين، وبدون إكمال هذا العمل لا يتوقع أن يتكسّر جمود الناس في الدين وأن يتحول الناس عن شخصيات وهيئات ومراكز إلى دين الله مباشرة ليفهموا أن الأمور الأساسية هي الدين ويبنوا دينهم على أساس الحقائق بدلاً من أن يعتمدوا على الكرامات والطلاسم، وليذوقوا لذة الدين الحي الفعال وليهجروا الأعمال الخاوية من الروح، وليدخل الإســـــلام في أعماقهم كقـــــوة محركة ولا يكـــــــون كذيل أو (خاتم ماسي) في اليد لا عمل له في حياة الإنسان، وليتذوقوا حقيقة التقوى بدلاً من أن يعتبروا بعض الأعمال الصناعية دينًا، وبهذا الإيمان الصحيح يكمن حل أكبر معضلة تواجه المسلمين في الوقت الحاضر، وهي المعضلة التي جعلت الإسلام يبدو جزءًا من حركات قومية يقوم بها المسلمون لأغراض مادية من أغراض الدنيا حتى أصبحوا فريسة الأمم والشعوب الأخرى. ولقد كان من الطبيعي أن ينظر المسلمون الخاضعون

للمنطلق القومي إلى الشعوب والأمم نظرة الازدراء والحقد والكراهية. وبالتالي تولدت من جراء ذلك نفسية قوامها الصراع والنزال والأنانية وأصبح المسلمون لا يطربهم إلا ما يروج عن بطولاتهم الحربية أو العسكرية في التاريخ، فتألّق بذلك (التفسير العسكري) للإسلام والحديث عن مميزات النبوة بمصطلحات الحكم والسياسة وإشعال نار الفوضى والشغب ضد الأمم الأخرى فضلاً عن اعتبار هذه الأمم عدوة ظالمة مغتصبة والإعجاب بأساليب الحرب والنضال بدلاً من المسالمة والتروي ما أمكن، وقد بلغ ذلك حدًا بدأ الناس معه ينظرون إلى كل نداء يدعو إلى الآخرة والدعوة والبناء الهادف بهدوء وصمت وروية على انه مؤامرة وشاغل عن الثغور والجبهات أمام أعداء الإسلام، ومثبط للهمم ومخدر للقوة وداع إلى أمور تفاهة لا أهمية لها ولا أولوية، ولو أقيم الدين على أساس من الحقائق الأبدية وفُصل عن هيكل الإسلام الصناعي التقليدي فستهوى هذه الأفكار وتسقط عن الأرض.

إن التعبيرات القومية والوطنية للإسلام تعجب الشخص إذا كان فكره منطلقًا من الخلفية القومية، ولكن إذا بدأ الإنسان يعيش في إطار تعاليم الإسلام فستتلاشى جاذبية هذه التأثيرات القومية.

إننا أحوج ما نكون إلى هذا الوعي الفكري أو الثورة في التفكير، إن نقطة الانطلاق الوحيدة لأي عمل حقيقي هي التوعية الصحيحة وهي الإقامة الحقيقية لإبراز هذه الملة الإسلامية على أرض الإسلام الحقيقي المنزل في الكتاب والسنة، وهي ــ في الوقت نفسه ــ تصحيح لمسار ذلك الاتجاه الذي يجعل الإسلام أشبه بالمذهب الاجتماعي التقليدي.

وعندما يبلغ هذا العمل حدًا ملموسًا نحو الغاية المنشودة فسيحدث في المسلمين شعورٌ ربانيّ وسلوك إلهي، وقبل الوصول إلى هذا المقصود الأول يكون اقتحام المخاطر والقيام بعمل كبير مزلزل غير ممكن إلا لإنسان سلب لبّه وضاع عقله وخلا إلّا من الإخلاص.

والحقيقة أنّ جميع الأهداف التي نتمنى تحقيقها إنما هي النتائج والمحصلات الثانوية لهذا التغيير الفكري، وإن كافة النتائج التي نترقبها ونَحِنُّ إليها سوف تنبثق من بطن هذا الانقلاب الفكــري الذي سيتمكن ــ بإذن الله من تحطيم أغلال مئات

الأوهام التي حاطت بحياتنا فينتج من ذلك أن يزداد النشاط العلمي ويمنح هذا التغيير جرأة وقوة معنوية للأفراد فيقومون بالمهام التاريخية والأعمال المختارة في مجالات شتى، وقد ينشئ هذا سعة أفق وامتداد طموح في الناس فيخطون خطوات لا يخطوها غيرهم، ويستثير هذا التغيير الوعي الرباني في الأشخاص، فيتمكنون من القيام بتخطيط يفوق كل تقدير، وبالتالي فلا يمكن لألد الأعداء أن يخترق هذا التخطيط أو يقضي عليه، ولسوف ينجح هذا التغيير في تسخير الشعوب والجاليات والمجتمعات تسخيرًا حسنًا فيصبح لأصحاب هذا التغيير مواقفهم المجيدة على وجه الأرض .

ومجمل القول عندما يتحقق هذا التغيير فستنفجر ينابيع الرزق من الأرض وتنهمر أمطار الفضل، ويكتب الله لهذه الأمة السيادة في الدنيا كما يكتب لها الفوز في الآخرة والخلود في الجنة.

حكمةُ تتابع الشرائع

إن مقاومة الجمود الديني مطلب أساسي يطالبنا به الله تعالى، وهذا هو سبب تتابع الشرائع واختلافها في التفاصيل لدى جميع الرسل. لقد كان الهدف هو تجاوز الجمود الديني، وقد نص على ذلك القرآن الكريم حيت يقول: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾**[2]، وهذا هو الهدف الذي من أجله جاء الأمر بتحويل القبلة: **﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾**[3]، وبوضوح أكثر: **﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾**[4]، وقد اصطلح بعض العلماء على استعمال مصطلح (التدرج) لتوضيح الفروق بين الشرائع وهم يريدون بذلك أن

---

(1) . المائدة : 48

(2) الحج :67 .

(3) البقرة :148.

(4) البقرة : 143.

شريعة الله سارت على دروب الرقي متدرجة من البســـاطة نحو الكمال. وهذا هـــو السبب ــ في رأيهم ــ لوجود فروق في التفاصيل بين الشرائع، مع أنه في الحقيقة لا أساس لهذا التفسير، وقد أبان القرآن الكريم بوضـــوح أن سبب تغيير الشرائع إنما هو (الابتلاء) وليس (الارتقاء)، فإن الشكل الظاهري للشريعة إنما يعني الإظهار الحي للعقائد الدينية، ولكن الشريعة ربما تفقد روحها وحيويتها بمرور العصور فتتحول إلى هيكل جامد انفصلت عنه الآصرة الروحية والنفسية والإنسانية، ولهذا فإن الله سبحان ينسخ الهيكل القديم للشريعة، ذلك الذي آل مرة إلى عمل تقليدي جاف ويغيره حتى يتجدد به الإيمان وتتقوى به روح الدين، ويتخذ الناس ـ بالتالي ـ شريعة جديدة بوعي جديد وتصميم جديد. وفي تلك المرحلة الدقيقة الحاسمة يتضح الفرق بين من يعبد الله بوعي وشعور ومن يعبد الله جريًا على العادة والتقليد الجامد.

إن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة مثال لتغيير الشريعة، وقد نص القرآن الكريم على حكمة هذا التغيير ﴿**لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾[1]، والحق أن ذلك كان امتحانًا فاصلًا بين من يتبع الحق ومن يتبع المراسم والعادات والتقاليد فالذي يتبع المراسم والتقاليد يظل خاضعًا لعصبيته المألوفة، والذي يتبع الحق يخلع ذلك المنهج التقليدي، ويصحح مساره وفق المنهج الصحيح.

---

(1) البقرة : 143 .

مَنهجيّةُ الفِكر

كانت الأرض الواقعة بين دجلة والفرات المسماة (مسوبوتاميا) في التاريخ القديم (العراق حاليًا) آهلة بذرية آدم الذين كانوا مسلمين آنذاك. ولكن عندما سرى فيهم الفساد بعث الله لهدايتهم رسوله هو سيدنا نوح ــ عليه السلام ــ ولكن القوم لم يرضوا بترك الفسوق والعصيان فحلّ بهم العذاب في شكل طوفان، فركب نوحا ــ عليه السلام ــ مع جماعة قليلة من أصحابه في سفينة، فنجت هذه السفينة ومن عليها من هذا الطوفان العظيم، وغرق الباقون. وقد ورد في القرآن الكريم أن ابن نوح لم يتفق مع والده ولم يؤمن به، فذهب فريسة الطوفان: ﴿**قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ**﴾[1]، لقد كان نوح ــ عليه السلام ــ يرى الطوفان (من أمر الله) فركب السفينة ولكن ابنه رأى أن الطوفان أمرًا مناخيًا وظاهرة من ظواهر الطبيعة فهرع إلى الجبل. فكان الفيصل بين النظرتين جوهريًا فنجى أحدهما بروحه، وأما الآخر فابتلعته أمواج الطوفان حين آمن بالظاهرة الطبيعية وكفر بأمر الله. إنك إن آمنت أن طوفانًا قد جاء بأمر من الله فسوف تسعى إلى مرضاة الله وتتولد في نفسك كيفية التضرع وحالة الخشية: ﴿**فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[2]، أما إذا اعتبرته حادثة من الحوادث التي تطرأ آناء الليل وأطراف النهار بحكم ظروف الطبيعة فسوف تنمو في نفسك الغفلة والمعصية كما كانت في نفس ابن نوح ــ عليه السلام ــ والمسلمون يواجهون في هذا الزمان بعديد من الأعاصير وأنواع من الطوفان، فقد هيمنت عليهم الشعوب الكافرة والقوى اللادينية سواء كانوا ــ في أوطانهم ــ أغلبية أم أقلية، فهنا أوهناك تصبّ الأمم الكافرة جام غضبها عليهم، وبالتالي

(1) هود: من الآية43.
(2) الأنعام: 43.

فهم يعانون في كل مكان أنواع العذاب والشقاء، وأحيانًا تنفذ تلك الأمم المعادية إرادتها الناقمة على المسلمين عن طريق استغلال فئة منهم وجعلها عميلة لها، وفي حال بائس كهذا كان على المسلمين أن يتذكروا وعد الله أكثر من مرة في القرآن الكريم بأنه مع المؤمنين: ﴿**وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[1]، وبأنه سيدافع عن المؤمنين الصادقين : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[2]، وأنه لن يسمح بهيمنة الكافرين على المؤمنين الصادقين: ﴿**وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا**﴾[3]، وفي ضوء هذه الآيات التي يجب أن نعيها نحن المسلمين فإن علينا أن نعتقد أن ما يتنزل من البلايا والنوائب إنما هو تنبيه من الله، وأنه في حقيقته أمر من أمور الله وليس من الأمور البشرية العادية أو الظواهر الطبيعية والسؤال الواجب هنا: كيف نرى نحن المسلمين اليوم هذه النوائب والخطوب المحيطة بنا؟ إن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها يتحدثون علنًا ويطنبون في أحاديثهم بأن هذه الأمور كلها إنما هي دسائس ضد المسلمين تقوم بها القوى المعادية للإسلام.

إن أقلامنا وألسنتنا لا تألوا وسعًا ولا تدخر جهدًا في إثبات هذا الأمر الوحيد، وقلما يوجد من يرى في هذه المصائب أنها من أمر الله، بل ذهب بعض الناس ليكتشفوا يد (البيت الأبيض)، وذهب غيرهم ليكتشف يد (البيت الأحمر) فمنهم من يتهم قومًا مشركين، ومنهم من يلوم جماعة أخرى من الكافرين وهذه في الحق ضلالة ما بعدها ضلالة، وهذه هي الفكرة التي أضلّت الجماعات الإسلامية في هذا الزمان حيث أنهم اعتبروا (أمرًا إلهيًا) يؤدبهم الله به مجرد حدث من الأحداث الإنسانية العادية. فالتاريخ يعيد نفسه لأن الخطيئة التي ارتكبها ابن نوح ــ عليه السلام ــ في قصة الطوفان يقترفها المسلمون في هذا الزمان.

ولو أن المسلمين اعتبروا من هذا الوضع القاسي المرير الذي يعيشونه على امتداد الدنيا بأجمعها أمرًا إلهيًا لرجعوا إلى الله وأنابوا ونشأت فيهم فكرة إصلاح النفس وتزكية القلب وتنمية العقل، وأصبحت همتهم موجهة إلى إصلاح تعاملهم

---

(1) الأنفال: 19.

(2) الحج: 38.

(3) النساء: 141.

مع الله على ضوء منهج الإسلام، ولكنهم اعتبروا ما يحيق بهم تآمراً إنسانياً ودسيسة من الدسائس، فبالتالي ثارت ثائرتهم وجنّ جنونهم وانتشرت نقمة عارمـــــة بين مجتمعاتهـــــم ضــــــد الأمم الأخرى، والإنسان المسلم يؤمن بأن الله قادر قدرة مطلقة، فإذا حسب أن النكبة التي ألمت به إنما هي من عند الله فسوف تنمو فيه نفسية التضرع والابتهال إلى الله وتتغير نفسه من الداخل، ولكن الإنسان إذا تأكد أن النكبة هي من تلقاء إنسان آخر فسوف تتولد فيه عوامل الثأر والحقد والنقمة، وهذه حالة المسلمين في العالم برمته فقد أصبحوا مغيظين حانقين ناقمين على الذين يصنعون بهم المؤامرات .

وجدير بالذكر أن لجميع حاملي الكتب السماوية قانونًا إلهيًا خاصًا موجزه أن الفساد عندما يسري في مجتمعاتهم فإن الله يُنزل عليهم المصائب والعقوبات العاجلة ليتنبهوا ويُصلحوا ما بأنفسهم، فاليهود الذين حملوا ديناً قديماً نالوا عقوبات شديدة في تاريخهم بما كسبت أيديهم من ضلال وفساد أسهب الكتاب المقدس في ذكرها فقد حفلت التوراة بذكر العقوبات التي حدثت قبل ميلاد المسيح ــ عليه السلام ــ في (الزبور) و(أشعياء) و(أرميا) و(بابل)، والعقوبات التي نزلت بعد ميلاد المسيح ــ عليه السلام ــ في أناجيل (متى) و(لوقا)، فمثلاً يأتي ذكر الفساد في اليهود على النحو التالي: « فاشتد قهر الله على عياله فأدان ميراثه (إسرائيل) ونقم نقمة شـديدة فألقى بني إسرائيل تحت هيمنة الأمم الأخرى وحكم فيهم أعداؤهم»[1] ،وإن المقت الذي تعرض له اليهود جاء ذكره في القرآن الكريم: ﴿**وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا**﴾[2]، ويظهر مما أسلفنا أن هذه العقوبات الإلهية أجريت على اليهود بأيدي الناس، فمثلاً قطع دابر الحكومة الإسرائيلية بغلبة سامريه في (721 ق م)، فقد أعمل السيف في رقاب اليهود فقتل عشرات الآلاف منهم ومن ثم أجلى اليهود من معظم بقاع فلسطين، وحلت مكانهم أمم أخرى واستوطنت هذه الأراضي. ولم ينزل الله الملائكة على الأرض لمعاقبة اليهود،

(1) الزبور: الباب– 106.
(2) الإسراء: 4، 5.

بل كان ذلك الحاكم الآشوري (سارغون الثاني)، هو الذي نفذ هذه العقوبة على اليهود، وفي عام(586 ق م) عندما قُتل اليهود في القدس وذاقوا الاستعباد والذل والهوان وأُحُرق البيت المقدس فإن ذلك أيضاً لم يكن بالإمدادات السماوية، بل كان على يد ملك بابل (بختنصر)، ثم كان الهجــوم على البيت المقدس في عام(168 ق م)، مما جعـل اليهود مستعبدين أذلاء مـرة أخرى وأحرقت صحفهم السماوية، وفي هذه المرة أيضاً لم تكن العقوبة بالوسائل غير العادية ولكن ذلك كان بواسطة ملك الشام (انطخيوس) (Antiochus) الذي صبّ جام غضبه على اليهود، ثم دخل المحتلون الأجانب فلسطين مرة أخرى في عام (63ق م)، فتوغلوا في البيت المقدس وأخضعوا اليهود. وبديهي أن الذي فعل ذلك لم يكن مخلوقاً سماوياً بل كان فاتحاً رومياً يُدعى بومبي (Bompey)، ثم شُنت غارة شعواء على البيت المقدس في عـــام (70 م)، ودُمر هيكل سليمان وتحولت المدينة المقدسة إلى أنقاض وبلغ عدد الضحايا من اليهود نحو مائة وخمسين ألفاً (150.000)، وجُعل الباقون عبيداً مستضعفين، وفي هذه المرة أيضًا لم تظهر الملائكة، بل حقق الله العقوبة بواسطة الملك الرومي (تيتس) (Titus).

وقد اعتاد اليهود في تاريخهم نسبة هذه الأحداث إلى الأعداء ولم يكونوا يحسبون أن ذلك من عند الله لأن الشخصية البشرية الظاهرة كانت حجابًا أكبر، ولكن القرآن الكريم والإنجيل يصدقان على أن تلك العقوبات كانت من عندالله ولو كانت الأيدي الإنسانية هي التي تعمل في الظاهر، ولو أدرك اليهود أن جميع هذه العقوبات هي من عند الله لنشأت فيهم روح العبادة والتوبة ولكنهم رأوا أن هذا الاضطهاد إنما هو نتيجة الدسائس والمؤامرات فتولدت فيهم روح الغفلة ونفسية التمرد، والحقيقة أن الله لا يبعث عقوباته بالملائكة، بل تُنفذ تلك العقوبات بواسطة البشر لكي تسترخي سدول الامتحان على وجه الحقيقة، ولكي ينتبه العقلاء ويصلحوا شئونهم، وأما الذين غرقوا في ظلام الغفلة والجهل فلن يزدادوا إلا ظلماً وعدوانًا.

ودار التاريخ وظهر المسلمون وأصبحوا ــ أيضًا ــ في عصرنا الحديث يوجّهون التهم واللوم إلى غيرهم فبذلك نشأت فيهم فكرة سلبية لا تمت بصلة إلى الحقيقة، ولم تتولد فيهم عقلية تقوم عليها جهود مجدية صالحة.

ولأن المسلمين اعتادوا أن يروا الأوضاع من جهة أنها (مؤامرة)، فقد أصبحوا لا يرون خطأهم في أمر من الأمور وأخذوا يوجّهون اللوم والتهمة إلى الآخرين ونتج عن ذلك أن فكرتهم الدينية أصبحت موجهة إلى السياسة ــ فقط ــ غير أن الفكرة الدينية في الواقع يجب أن تكون موجهة إلى الآخرة ــ أولاً ــ وبالتالي أصبح المسلمون أمة خالية من الشخصية، إذ أن الشخصية تتولد من الشعور بالمسؤولية. وقد أصبح الشأن في المسلمين أنهم لا يعرفون أية مسؤولية ولا يدركون أي واجب، وحسبهم فقط أن يطالبوا بالحقوق. ونتيجة لذلك فقد أصبح منهج المسلمين في هذا الزمان منهجًا (قومياً) بدلاً من أن يكون منهجًا نابعًا من (المبدأ) وحده لأن الشعب الذي يعتبر الآخرين خصومًا له يغدوا منهجه (قوميًا)، وإن هذا الوضع قد يفضي إلى الاقتتال والتخاصم بين المسلمين لأن المسلمين عندما لا يقدرون على منازلة شعوب أخرى فإنهم يتخاصمون فيما بينهم إطفاء لنار العداوة في قلوبهم وإرواء لنزعة الصراع المتأججة في صدورهم.

وإن الخسارة الفادحة التي تنتج عن هذه الفكرة الخاطئة هي أن المسلمين تخلوا عن فكرة (الدعوة) التي هي مقصد وجودهم وغاية إخراجهم إلى حيّز الوجود، فالمسلم الذي يدعوا الناس إلى دين الرحمة والهداية يحترق قلبه ويتفجر شفقة ورحمة بهم، ولكن لما اصطلح المسلمون على فكرة المؤامرات والدسائس، تكونت فيهم نفسية موجّهة ضد الآخرين، إنها نفسية الكراهية والحقد وأخذ الثأر، فإذا كان هذا حالهم فكيف يمكن لهم أن يقوموا بعمل الدعوة بإخلاص وجدية، أجل كيف يمكن للقلب الحاقد نشر الحب وللعقل المظلم نشر النور؟!!

شهادة الحق

إن مسئوليتنا تجاه غير المسلمين هي شهادة الحق، أو الدعوة إلى الإسلام لكي تصل رسالة الله لكل البشر، ولا تكون لأحد حجة يوم الآخرة للتذرع بأنه كان يجهل رسالة الحق. إن القرآن الكريم يخبرنا بأن الله تعالى قد أسكن الإنسان على الأرض ليختبره: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾(1)، إنها قضية ذات خطورة قصوى، فهي تعني أن السلوك الذي يختاره الإنسان لنفسه في هذه الحياة هو الذي سيقرر مصيره الأبدي في حياته الآخرة، فإما حياة الخلود في نعيم الجنة الأبدي أو العذاب الأبدي في الجحيم. وقد دبّر الله تعالى أمر تنبيه الإنسان إلى خطورة هذا الوضع بأسلوبين خاصين هما:

أولاً: غرس في فطرة كل إنسان شعور الصواب والخطأ: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾(2)، وكان الله تعالى قد خلق هذا الشعور في الإنسان منذ أولى نشوئه:

﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾(3).

ثانياً: ثم أرسل الله الرسل في كل العصور، إلى جانب غرس هذا الشعور الفطري وذلك لكي تصل الرسالة إلى كل إنسان مباشرة عن طريق أنبياء من البشر: ﴿**رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾(4)، وقد تواصلت النبوة على وجه الأرض منذ بدء الحياة البشرية. فأدم ــ عليه السلام ــ لم يكن هو الإنسان الأول الذي وطأت قدماه بساط الأرض فقط، بل كان ــ في الوقت نفسه ــ أول نبي على ظهر المعمورة، وشاءت مشيئة الله تعالى أن تنتهي سلسلة النبوة في القرن السابع الميلادي، فكان محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ آخر الأنبياء الذين أرسلهم الله لهداية

---

(1) الملك: 2 .

(2) الشمس: 8 .

(3) الأعراف: 172.

(4) . النساء: 165

البشر. أما مسئولية إبلاغ الدعوة فهي لا تزال مطلوبة ــ اليوم ــ تماماً كما كانت مطلوبة في الأزمنة الغابرة، وقد اختار الله المسلمين لأداء هذه المسئولية: ﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ**﴾[1]، لقد أبلغ الرسول الدعوة إلينا أحسن إبلاغ فكان شاهداً علينا ومسئوليتنا من بعده أن نبلغ الرسالة إلى جميع الشعوب فنكون شهداء عليها: ﴿**الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾[2]، وليست هذه مسئولية هامشية أو ثانوية، بل هي مبرر وسبب وجود الأمة الإسلامية، ولم يكن غرض النبوة ليتحقق لو لم يبلغ الرسول الرسالة خير بلاغ: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[3]، وكما أن غرض النبوة لم يكن ليتحقق لو لم يبلغ الرسول رسالته على خير وجه، فإننا لن نستحق الانتماء إلى الأمة الإسلامية إن لم نبلغ رسالة الإسلام إلى الأجيال القادمة على الدوام. إن إيماننا بأن **كل من مات على غير دين الإسلام فهو من الخاسرين قال الله تعالى:** ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[4]، لا يحفزنا على إتباع الدين الحق فحسب، بل كذلك يلهب حماسنا لإنقاذ من يمكن إنقاذه من بني نوعنا (البشر). نقل ابن عبد البرّ عن معاوية بن حيدة القشيري: أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين دعاه إلى الإسلام ختم حديثه بهذا القول: «مَالي أمسك بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، أَلَا وَإِنَّ رَبِّي دَاعِيَّ، أَلَا وَإِنَّهُ سَائِلِي: هَلْ بَلَّغْتَ عِبَادِي؟ وَإِنِّي قَائِلٌ: رَبِّ قَدْ أَبْلَغْتُهُمْ، فَلْيُبَلِّغْ شَاهِدُكُمْ غَائِبَكُمْ»[5]. إن إبلاغ الدعوة أهم مسئولية ملقاة على عاتق الأمة الإسلامية، وعليها أن تضطلع بهذه المسئولية بمنأى عن كل خلاف وشقاق. خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ على أصحابه فقال: «إن الله بعثني رحمة للناس كافة فأدوا عني»[6]، إن هذه الأمة مبعوثة بصفة دائمة حتى قيام الساعة، كما كان النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ مبعوثاً في عصره. لقد ورد في الحديث

(1) الحج: من الآية 78.
(2) الحج: من الآية 78.
(3) المائدة: 67.
(4) آل عمران: 85.
(5) مسند أحمد: كتاب أول مسند البصريين، باب حديث بهز بن حكيم، رقم الحديث 19182 -.
(6) تهذيب سيرة ابن هشام: المجلد الثاني، ص141.

الذي جرى بين ربعي بن عامر مبعوث الخليفة الثاني إلى ملك الفرس سفيراً للإسلام وبين أمراء الفرس فقالوا له: «ما جاء بكم؟ فقال: الله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه»﴾[1].

وهذه مسئولية عالمية لا تقف عند حدّ جغرافي بل تستوعب كل ما أمكن الوصول إليه من أجزاء أرض الله، وقد جاء في خطاب نعمان بن مقرن أمام ملك الفرس قوله رداً على سؤال لكسري: « وأمرنا النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو الإسلام حسّن الحسن وقبّح القبح كله »[2]، إن هذه المسئولية كانت جلية في نظر الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ فحين عرض عمرو بن العاص دعوة الإسلام على الزعماء الدينيين، أخبرهم أن الله أرسل نبينا برسالته إلى البشر وأنه « قد قضى الذي عليه وتركنا على الواضحة »، إن الهدف الأساس لمجيء الرسل هو تنبيه الناس إلى رسالة الحق ﴿**ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا**﴾[3]، ليعرف الناس الخطة التي خُلق الكون من أجلها، وليعرفوا مصيرهم وليعلموا الغيب قبل أن يُقلب بساط الأرض فيصبح الغيب مشهوداً. إننا معشر المسلمون مسئولون عن تنبيه الناس وإرشادهم إلى هذه الحقيقة الأخروية وتحذيرهم من يوم الحساب القادم. إن الحكمة الكلامية قد تقتضي أحيانًا أن يُعرض الإسلام (كأفضل نظام للحياة الدنيوية) ولكن صدق هذا الكلام سيظل محصوراً في الضرورة الكلامية، وسيفقد هذا الكلام حقيقته لو قررنا أن هذا الأسلوب هو الأسلوب الحقيقي والصحيح لعرض الدعوة الإسلامية، وذلك لأننا لو عرضنا الإسلام كأفضل نظام للحياة الدنيوية فسيظن المدعو أن الإسلام مجرد محاولة لحل المشكلات الدنيوية، أو بكلمة أخرى، هو تدبير لإنقاذ الناس من الجور السياسي والاقتصادي، بينما الحقيقة هي أن الأنبياء كانوا يُبعثون دائمًا ليدلوا الناس على طريق النجاة من عذاب يوم الآخرة: ﴿**يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ**

(1) البداية والنهاية: المجلد السابع، ص39.
(2) البداية والنهاية: المجلد السابع، ص41.
(3) نوح: 9 .

﴿يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾[1]. إن منتهى التبليغ فيما يتعلق بالمدعو، أن يقبل الدعوة ويصوغ حياته كلها في ضوئها. أما منتهى التبليغ، فيما يتعلق بالداعي، فهو أن يبلّغ الرسالة بمنتهى الصدق والوضوح والنصح للمدعوين، فلا يكون لأحد منهم عذر أو حجة بأن رسالة الحق لم تصل إليه. فمعيار إتمام الحجة ـ بالنسبة للأنبياء ـ أن يبلّغوا رسالتهم إلى مخاطبيهم بمنتهى الوضوح ولم يكن الأنبياء مكلفين بأي شيء آخر ما عدا التبليغ الواضح.

إن الأمم التي ذكرها القرآن الكريم بأنها لم تستجب لرسالة أنبيائها فاستحقت العذاب الإلهي، هي الشعوب التي بلّغها أنبياؤها الرسالة بالخطب والأحاديث لا أكثر. وهذا هو السبب في أن الكلمات التي استخدمها القرآن الكريم، للتعبير عن هذا الأمر تدل على معاني الإبلاغ والتنبيه والإنذار، مثل:

نداء الإيمان **﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾** آل عمران: من الآية193

تبليغ ما أنزل الله **﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّك﴾** المائدة: من الآية67

قص الآيات **﴿ يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾** الأعراف: من الآية35).

إبلاغ الرسالة **﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾** الأعراف: من الآية79

التذكير بأيام الله **﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾** إبراهيم: من الآية 5

الصدع بالأمر **﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾** الحجر: 94

تبيين الآيات**﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾** النحل: من الآية 44

قراءة القرآن **﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾** الإسراء: من الآية 106

تلاوة الكتاب **﴿ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾** العنكبوت: من الآية51

(1) غافر: من الآية 15.

الإنذار والتبشيـــر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ سبأ: من الآية 28

دعوة للإســـلام ﴿ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾ الصف: من الآية 7

وقد روى البيهقي عن المغيرة بن شعبة أن أبا جهل قال للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ذات يوم حين دعاه إلى الإسلام: «يا محمد، هل أنت منته عن سبّ آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أنك قد بلغت؟ فنحن نشهد أنك قد بلغت».[1]، وقد أشهد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ صحابته مراراً على أنه قد بلّغ الرسالة على خير وجه.

ويروي الإمام أحمد عن ثعلبة بن عباد العبدري أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال ذات مرة وهو يخطب في المسلمـــــين: «أيها النَّاسُ، أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ أَنِّي قَصَّرْتُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ تَبْلِيغِ رِسَالَاتِ رَبِّي لَمَا أَخْبَرْتُمُونِي ذَاكَ، فَبَلَّغْتُ رِسَالَاتِ رَبِّي كَمَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُبَلَّغَ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي بَلَّغْتُ رِسَالَاتِ رَبِّي لَمَا أَخْبَرْتُمُونِي ذَاكَ»، قَالَ: فَقَامَ رِجَالٌ، فَقَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ رِسَالَاتِ رَبِّكَ، وَنَصَحْتَ لِأُمَّتِكَ، وَقَضَيْتَ الَّذِي عَلَيْكَ»[2]. إن الداعي يبدأ دعوة الناس إلى رسالة الحقّ، بهذه العاطفة. إنه يريد ــ بمراعاة جميع مقتضيات الحكمة والنصح ــ أن يبلّغ الناس الرسالة بأقصى قدر ممكن والأحداث التي تقع خلال الدعوة لا تتعلق أساسا بالدعوة، بل تتعلق بالمخاطبين. ولذلك لا يمكن تحديد أسلوب أمثل للدعوة، كما لا يمكن الجزم بأن مثالاً ما للشهادة هو الأسلوب الصحيح بالضرورة. فمن الممكن أن توافي الداعي منيته وهو لمّا يدعو قومه، ومن الممكن ــ كذلك ــ أن تعتنق بعض الشخصيات النافذة رسالة الحقّ فينتشر دين الله في منطقة ما بسرعة مدهشة، وقد يصطدم المدعوون بالدّاعي فيتآمرون للقضاء على الدعوة، وقد يهيئ الله السبل للداعي الأول أو أتباعه من بعده فيسيطروا على السلطة. والسيطرة على السلطة ــ أيضاً ــ تكون بأساليب مختلفة، فقد تكون السيطرة سياسية محضة، وقد تنجح حركة الدعوة في استقطاب المدعوين على نطاق واسع فيؤسسون مجتمعًا منظمًا على أسس الإسلام. إن كل هذه الصور

(1) البداية والنهاية: ج3،ص65.
(2) مسند أحمد مخرجا 33/ 348

ممكنة الحدوث ولها أمثلة في تاريخ الدعوة الإسلامية الطويل، ولكن صورة ما من هذه الصور ليست شرطاً أو معيار لشهادة الحقّ. فجلّ ما هو مطلوب لأداء فريضة الدعوة والشهادة، أن نبلّغ رسالة الحقّ بغاية النصح: ﴿**أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ**﴾[1] **وفي قول بليغ**: ﴿**عِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا**﴾[2].
وأن نستمر في أداء الفريضة مهما واجهتنا من عقبات ومحن. وكل ما يحدث بعد ذلك فلا يعدو أن يكون نتيجة دنيوية لجهاد الدعوة، أو بكلمة أخرى، هي وقائع تاريخ الدعوة التي ظهرت بمختلف الأشكال على مرّ العصور. فالمطلوب فيما يتعلق بالداعي، أن يبلّغ رسالة الحقّ بأقصى قدر وجهد ممكن وأن يظل يؤدي هذه المسئولية حتى نهاية أجله. والوقائع الأخرى كلها تتعلق بالمدعوين. والواضح أنه لا يمكن إعداد فهرس شامل معين لوقائع الدعوة. كما لا يمكن في ضوء اختلاف نوعية هذه الوقائع، إصدار الحكم بشأن كمال عمل الداعي أو نقصانه.
والأمر المهم الآخر في هذا الصدد هو أن دعوة غير المسلمين إلى رسالة الحقّ لا تستدعي بالضرورة، وضع الدين كله أمامهم مرة واحدة. فالأسلوب السليم هو اطلاعهم على تعاليم الدين المبدئية أولاً كمفاهيم (الله) و(الرسالة) و(الآخرة) فهذه هي الأشياء التي تطرح أولاً أمام غير المسلمين ويتم توضيحها لهم بمختلف جوانبها والرد على شكوكهم وأسئلتهم بالاستدلال القوي. وعندما يؤمنون بهذه المفاهيم الأساسية توضح لهم التعاليم التي أنزلها الله لعباده المؤمنين، ونذكر على سبيل المثال أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين أرسل معاذ بن جبل ــ رضي الله عنه ــ إلى اليمن سنة (10هـ) لنشر الدعــوة قال له: « إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ »[3]، وهذا هو السبب في أن الأنبياء كانوا يحصلون على التعاليم الدينية الأساسية ـ فقط ـ

---

(1) الأعراف:68.
(2) النساء:63.
(3) صحيح البخاري 2/ 128.

في بدء الدعوة، ويظلون سنوات طوالاً يدعون إليها وينشرونها وكانت التعليمات المفصلة تُوحى إليهم كلما انفرجت الظروف العملية، ولم يحدث أبدًا أن نبيًا ما طرح على قومه فور بعثته البرنامج الاقتصادي والتمدن الكامل، وطالبهم بإقامة الدولة الإسلامية لتنفيذ ذلك البرنامج في سائر مجالات الحياة.

منهج الدعوة إلى الله

قال الله تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾[1].

إن الآية لم تقل ﴿**أَقِيمُوا الدِّينَ**﴾ في مقابل **القضاء على الباطل**، بل أمرت بإقامة الدّين في مقابل **عدم التفرّق فيه**. فالحالتان اللتان جاء فيهما الأمر والنهي. تتعلقان بالدّين ذاته. ولقد كتب المفسرون أن المقصود بالدّين في هذه الآية هو الدّين الأساسي المشترك بين جميع الأنبياء وهو غير الشريعة المفصلة: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾[2]، ولم يكن الفرق بين الأنبياء بالنسبة للشريعة المفصّلة قائمًا على أساس أيّ تطور تشريعي بل كان قائمًا على أساس الفرق بين الظروف ومراحل الدعوة. وبعبارة أوضح إن الدّين يشتمل على قسمين: قسم مطلوب بصفة مُطلقة وبحالة واحدة، وقسم مطلوب تبعًا للظروف، فالأول يتعلق بالتعاليم الأساسية كالتوحيد، ولقد جاء ذكره في القران الكريم باسم (الدّين) والقسم الثاني الشريعة أو المنهاج أي القوانين الفرعية وأسلوب العمل ... وقد عّبر القرآن عن القسم الأول بالصراط المستقيم قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[3]، وليس المقصود بالسبل في الآية طرق الكفر أو الشرك، بل تلك السبل التي تظهر باسم الدّين، ويكون نتيجتها التفرقُ في الدين الواحد المتفق عليه وعلى سبيل المثال، **التوحيد هو جوهر الدّين، وهو اعتراف العبد بخالقه، وصرف العبادة له وحده، لا يشرك به شيئا، هذا هو أصل الدّين، فمن وجده وجد كلّ شيء ومن أضاعه أضاع كل شيء**. فالأمر الذي جاء في القرآن الكريم بإقامة الدّين يتعلق بالتوحيد. وإقامة الدّين إنما هو عنوان للجهاد من أجل القضية

---

(1) الشورى: من الآية13 .

(2) المائدة: من الآية 48.

(3) الأنعام: 153.

المتفق عليها وهي قضية عبادة الله حق عبادته وليس إثارة الجدال، أو النزاع بين المسلمين في المسائل المختلف حولها.

وعلى سبيل المثال: إن قضية وجود الله ووحدانيته والدعوة إلى إلوهيته بين الناس من الأمور التي ليس فيها اختلاف بين الأمة لأنها ثابتة بحكم الآيات والأحاديث، وعلى العكس من هذا لو أخرجت لحلبة الصراع قضايا مثل: ما عرش الله، وكيف يكون هذا العرش، أو كيف يكون الاستواء عليه، فإن مثل هذه القضايا استنباطية والخوض فيها يجعل البعض يأخذ اتجاهًا طبقًا لاستنباط شخص ما، والأخر يسلك اتجاها آخر وهكذا تظهر نتائج مختلفة وتتجمع حول كلّ نتيجة جماعة من المؤمنين لدرجة يتحول فيها الدين الواحد إلى عدّة مذاهب وفرق. فإذا قامت جماعة مثلاً بإثارة نزاع فقهيّ حول جزئيات العبادة، أو راحت تقيم جبهة سياسية تعارض السلطة الحاكمة فتقوم بالصدام معها باسم إقامة الدّين، فهذا لا يعني أبدًا (إقامة الدّين)، بل هو إتباع للسبل ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**﴾[1] وهو أمر ممنوع تماما في الدّين، وإن إثارة المعارك حول الأمور الثانوية أو القضايا المختلف فيها إنما يقضي على وحدة الأمة، فالأمة حين تتمزق إلى فرق مختلفة فهي تحرم من نصرة الله الاجتماعية.

وهكذا يبدو لنا أن الجهاد في مجال العقائد المتفق عليها إنّما هو وحده (الإقامة للدين)، وعلى عكس من هذا فالقسم الثاني (المسائل الخلافية) سوف يبعث الشقائق، ويحدث الشروخ في الدّين وهو ما يسمىّ بالمصطلح القرآني: (التفرق في الدين). فمثلاً نحن نعلم أن الوضوء من اجل الصلاة متفق عليه كما هو في القرآن الكريم والحديث الشريف، إلا أن الآراء المتعلقة بآداب الوضوء مختلف عليها، فإذا أقمت دعوتك على ضوء المسائل المختلف عليها، فلا يمكن أن تتفق الآراء حولها، وهكذا سيكون عملك هذا سبباً في ظهور الاختلافات والفرقة وسوف يقسم الأمة إلى عدّة أمم، ولهذا قد صدر الأمر بعدم جعل مدار الدعوة على الأمور المختلف عليها. وهذا التعامل مع العبادات ينطبق على السياسة الإسلامية أيضا، فإذا قام شخص فدعا الله أن يصلح الحكام، والتقى بهم لقاءً فرديًا، ونصحهم بعبادة الله والاعتبار باليوم الأخر وأوضح جوانب السياسة

(1) الأنعام: 153.

الإسلامية عن طريق الكتابة والخطابة بأسلوب واضح متزن، فلن يكون هناك تفرّق أو إشاعة للفتنة بين رجال الأمة، وعلى العكس من ذلك، إذا رفع بعض الناس راية الاحتجاج وكوّن جبهة سياسية للمعارضة، وقام بحركة تهدف إلى تنحية الحكام عن السلطة، فإن النتيجة أن تصبح الأمة جماعات متفرقة، وتنقسم الأمة إلى جبهتين تحارب أحدهما الأخرى ويظهر التفرق في الدين باسم إقامة الدين.

وكما أن آداب الوضوء مسألة استنباطية، وهو سبب وجود آراء مختلفة لدى أهل العلم لتحديدها كذلك الحال بالنسبة للرسالة السياسية الإسلامية، فهي تقوم على أساس الاجتهاد والاستنباط لأنه لا يوجد في القرآن والحديث نص يحدد صراحة نوعية الرسالة السياسية الإسلامية، ولهذا ظهرت آراء متعددة لدى العلماء حول هذه المسألة. وهذا دليل على أن قضية الحركات السياسية هي قضية فرعية (السبل المتفرقة)، وليست قضية الدّين المتفق عليه. وليس معنى هذا التقسيم أن المطلوب من الدين هو الكليات فقط، وأن الأمور الجزئية أو الفرعية ليست مطلوبة، بل المقصود هو ملاحظة الفرق بين المطلوب الحقيقي، والمطلوب الإضافي، وإتباع أسلوب التسامح في الأجزاء الإضافية مع التشديد على الأجزاء الأصلية ويمكن أن نفهم هذا أكثر من مثال آخر محدد يتعلق بالحلال والحرام في مسألة الطعام. فمن المعلوم أن على المؤمن أن يجعل الحلال طعامه، ولا يدخل إلى حلقه أي طعام محرم، وهذا هو الأصل المتفق عليه كما هو مبين في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. والمسألة الثانية هي مسألة آداب الطعام فمثلاً هل يتناول الطعام بيده أو بالملعقة، جالسًا على الأرض أو على المنضدة، منتعلاً حذاءه أو خالعًا إياه، فالمسألة الأولى تدخل في كليّات الدين المتفق عليه، مثلا كذكر أسم الله على الذبيحة يوضح بطريقة محددة ما هو(الحلال) بالنسبة للمسلم، ولكن بالنسبة للأمر الثاني فلا يوجد له طريقة محددة، وهناك أكثر من طريقة في سيرة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وفي حياة الصحابة الكرام.

ففي مثل هذه الحالة إذا قام شخص بالتشدد في مسألة الحلال والحرام التي يتفق عليها علماء الأمة لن يكون هناك تفرق، وعلى العكس من هذا لو تمّ التشديد على قضايا آداب الطعام فلن يكون هناك أي اتفاق في الرأي على مسلك واحد تنتهجه الأمة، فالفهم الصحيح هو ما أشارت إليه الآية: ﴿**كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ**

وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾[1]، وعليه يتم التشديد والتأكيد، ولكن يجب إتباع التسامح في الأمور المتعلقة بنوعية آداب الطعام.

وهذا هو حال الرسالة السياسية للأمة الإسلامية، فهي قضية استنباطية تقوم على الاجتهاد، وعلى سبيل المثال: ترى جماعة في وقتنا الحاضر تدعى أن الهدف الأساس للأمة الإسلامية هو الجهاد لتأسيس دولة إسلامية، فيما ترى جماعة أخرى إن أساس العمل هو إصلاح المجتمع وليس إصلاح الحكومة، فإذا ما صلح المجتمع ظهرت تلقائيًا الحكومة الصالحة، وترى جماعة ثالثة أن الدولة أمر وعد الله به المسلمين أيّ أنها إنعام من عند الله، وليست هدفًا يبذل من أجله الكفاح والجهاد، بالإضافة إلى مثل هذه الاختلافات النظرية ينبغي ملاحظة أن الأسلوب الأول يضم أموراً عملية حساسة جداً بالنسبة للدولة، وذلك حين تتم محاولة تنحية جماعة تسيطر على السلطة وسلبها منها، فهي بالضرورة سوف تستخدم قوتها ضد معارضيها السياسيين، ونتيجة لذلك سيحدث سفك للدماء بين المسلمين وتنتج عن محاولة (إقامة الدين) (تفريق في الدين) ولهذا السبب صدر الأمر الإلهي بأن لا نجعل ـــ في كل الأحوال ـــ الأمور الخلافية أساسًا للدعوة الإسلامية، بل يجب أن تقوم دعوتنا على أساس الأمور المتفق عليها فحسب. **والله أعلم.**

(1) المؤمنون: من الآية 51.

الأمير همداني

نموذج للمسلم المثاليّ

هناك مثال على المنهج الإسلامي، نجده في تاريخ كشمير، وتعد كشمير منطقة مشهورة بجمال طبيعتها، إلا أن فيها ما هو أجمل وأعظم من جمال طبيعتها وهو نموذج المنهج الإسلامي الذي نجده في حياة الأمـــــير (سيد على الهمذاني) (1314م ــ 1384م) وقد اشتهر في كشمير باسم (أمير كبير)، ولقد ترك بسيرته نموذجاً قابلاً للاحتذاء قل أن نجد له مثلاً في القرون الحالية، أن بلاد (كشمير) كالجنة بطبيعتها الخلابة وهي بـ (أمير كبير) قدمت منهجاً للدعوة الإسلامية، وهذا المنهج أعظم كثيرا من جنّاتها، وقد قال محـــمد إقبال (1877م ــ 1938م)، عن الأمير همداني : « إن في يده منهج بناء الأمم »، وهذا الرأي صحيح مائة بالمائة (100 ٪). فكشمير المسلمة اليوم إنما هي ثمرة جهاده، الذي لم يتبـــع فيه أسلوب (السيف والرمح) أو (التصادم مع الزمان) بل اتبع فيه أسلوب الهداية غير المحببة لدى معظم القادة المسلمين في الوقت الحاضر، لقد حقق الأمير (همذاني) النجـاح والفلاح بعد أن ترك السيف والرمح وكان أعظم درس قدّمه في حياته هـو قولـــه: « إن أردتم بقاء الإسلام حيًّا فادفنوا فكرة التصارع والتناحر إلى الآبد، وتجنبوا تماماً إثارة الصراعات المذهبية والسياسية، وبعدها ستنالون نصرالله وتوفيقه، وستتحقق للإسلام العزة والرفعة ويعزّ الله المسلمين بإسلامهم ». كان الأمير (على همذاني) من سكان (إيران) معاصرًا (لتيمورلنك) (1335م ــ 1405م) وقد غضب عليه (شاه تيمور) لسبب ما، وأصدر حكمًا بنفيه من إيران، ولم يكن أمام الأمير (همذاني) من سبيل إلا إعــــلان الجهاد ضد (تيمورلنك) والعمل على إقامة حكومة صالحة في إيران، حتى ولو كانت النتيجة الاستشهاد ولكن (أمير كبير) ابتعد ــــ في أسلوبه ــــ عن التصادم السياسي، بل أخذ رفاقه الأربعين وخرج من وطنه (همذان)، ووصل

بهذه القافلة إلى (كشمير 781هـ) مارًّا (بأفغانستان)، وكان قد زار (كشمير) فواتته فرصة للإعلان عن حركة سياسية مناهضة (للشاه تيمور)، وكان هناك أناس في زمان (تيمور) يكرهونه لأسباب سياسية، كان يمكن (للأمير كبير) إن يقيم معهم تحالفاً للقضاء على السلطة (التيمورية)، إلا أنه تجنب ــ لأقصى حد ــ أي نوع من هذا العمل، وهكذا فتح الطريق أمامه ليمتلك زمام القيادة، وكانت هناك قضية تتعلق بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية لمسلمي (كشمير) في ذلك الوقت، ومع أن أمير كشمير كان من أسرة مسلمة إلا أنّ مسلميّ كشمير كانوا يمثلون أقلـــــية فقيرة مستضعفـــــــة حتى قيـــل أنهم كانوا يضطـــرون إلى دفع نذور المعابد الهند وكية، وكـــان يمكن للأمير (همداني) أن يقود حركة الزعامة التي تهدف إلى المطالبة بحقوقهم، ويتمكن من أن يصبح قائداً للمسلمين إلا أنه لم يهتم بهذا النوع من السياسة الطائشة !!، وهكذا اتجه أمير (همداني) إلى الطريق الذي ارتضاه وهو أن يبلغ رسالته باسم (الإنسانية) وأن يقدم عظته وخطبه بطريقة سلمية لجميع فرق كشمير المختلفة، وتمكن بسرعة كبيرة من أن ينال مكانه محببة لدى الفريقين المتصارعين في (كشمير) لأن الفريقين أعجبوا به، فقد راح يعمل على إيجاد وحدة بين الفريقين دون إثارة مسألة الحق والباطل وبطريقة لا يشعر فيها أي من الفريقين أنه خاضع لضغط ما. وجدير بنا أن نقول في مجال المقارنة بين أسلوب (همداني) والأسلوب الثوري السياسي إن النوع الثوري من الحركات مهما بدا ناجحاً على مستوى الاجتماعات والخطب والشعارات، فإنه قد أثبت بصورة عملية وعلى الدوام أنه أسلوب فاشل، وهو أسلوب من العمل رغم ما يبدو فيه من جانب ظاهر طيب إلا أنه يركز على قضايا الدنيا فقط بينما هدف الدعوة الإسلامية هو توجيه الناس إلى قضـــــــــايا الآخرة، وبرنامج (همداني) لم يكن قائمًا على عملية ردً فعل مضاد للشاه (تيمور) أو رد فعل متأثر بالظروف الوقتية لمسلمي كشمير الذين كان يحكمهم في ذلك الوقت حاكم مسلم هو (سلطان قطب الدين) وكان يؤمن بالعديد من الاعتقادات الفاســـدة ويرتكــــــب الكثيـر من الإعمـــــال السيئة، لكــــــن (همداني) أرسل إلى السلطان رسائل عديدة مليئة بالنصح والإرشـــــاد واهتمت بضرورة إصلاح الأحوال. وهكذا لم يؤسس (همداني) حركة ثورية تهدف إلى عزل السلطان عن الحكم ووضع حاكم صالح مكانه، بل ارتفع أمير (همداني)

فوق هذه العوامل وأقام برنامجه الإصلاحي على أساس فكر ثابت، ولم يكن لهذا البرنامج ميثاق (!!). فقد كان برنامجه عمليًا، لقد انتشر هو ومن معه من إخوانه في نواحي منطقة (كشمير) وشرعوا يبلغون الإسلام لأهالي تلك المناطق، وتعلموا لغة الكشميريين وتأقلموا مع ظروف المنطقة، وتحملوا المتاعب الناتجة عن استيطان بلد غير بلدهم. وهكذا عاش (أمير كبير) حياة الصبر والتحمل، وقام بحركته الإصلاحية في صمت وهدوءٍ.

الإسلام في كشمير

مع أن دخول الإسلام في كشمير بدأ علي يد (محمد بن القاسم الثقفي) (66هـ 96هـ) فإن انتشار الإسلام بدا بصورة واضحة في كشمير أمام (سيد بلبل شاه قلندر التركستاني)، وقبل سبعمائة سنة كانت كشمير إمارة خاضعة لأمير بوذي يدعي (ريجن شاه)، وقد أسلم هذا الأمير البوذي علي يد سيد بلبل شاه، ولما كان الناس في ذلك الزمان على دين ملوكهم، أسلم عدد من الكشميريين، وكان بلبل شاه تابعاً للمذهب الحنفي، وهكذا اتبع المسلمون الكشميريين آنذاك المذهب الحنفي في عبادتهم، وحين قدم (الأمير سيد على همذاني) إلى كشمير وبدأ الناس يسلمون على يده ظهرت مسألة خلافية تتمثل في أي المذاهب يسلكون في عبادتهم .

فقد كان أمير همداني نفسه شافعي المذهب بينما كان مسلمو كشمير على مذهب أبي حنيفة!! فإذا ما قام أمير همداني بتلقين هؤلاء المسلمين الجدد المذهب الفقهي الشافعي فالنتيجة الحتمية هي انقسام المسلمين إلى جماعتين من حيث المذهب: الجماعة التي أسلمت على يده، ثم بقية مسلمي كشمير. فقد كان الخلاف القائم ما بين الحنفية والشافعية يتعدى انفصال مدارسهما ومساجدهما إلى أصل عملية التبليغ في محاولة كل منهما إثبات صحة مذهبه الفقهي وأفضليته، فإذا ما أصبح المسلمون في كشمير جماعتين منفصلين، وبدأت كل جماعة تتصارع مع الأخرى فتضيع فيما بينهم تلك القوة التي يجب أن تبذل في سبيل نشر كلمة الحق وتمضى الأجيال ويستمر الاختلاف ولا ينتهي أبدًا.

ولهذا قام الأمير سيد على همداني بتبليغ أسس الدين فقط، ولم يثر أبدًا أي بحث يتعلق بالمذاهب الفقهية، ولقد احتاط حتى انه أخفي عن متبعيه مذهبه

الشافعي، وكان يصلي مع المسلمين جميعاً بالطريقة الحنفية، وكان ينصح زملاءه بأداء العبادات طبقاً للمذهب الحنفي، وكانت النتيجة أنه وجد فرصًا مناسبة ليؤدي ــــ دون نزاعات جانبية ــــ رسالته في كشمير، ففاز بتعاون جميع الطبقات، وظل في أمن بعيدًا عن الدخول في متاهات القضايا الفرعية، وقد نجح في نشاطه في سبيل الدعوة الإسلامية حتى أصبحت كشمير منطقة تضم أغلبية مسلمة حتى الآن، ولو قام (أمير كشمير) بإثارة جدل حول المذهب الحنفي الشافعي لما حالفه النجاح في تلك المنطقة، ولو حقق بعض النجاح فسيكون على حساب انقسام مسلمي كشمير إلى فريقين متصارعين .

وليس معنى هذا أن الناس الذين يمضون على هذا لا ينشأ بينهم اختلاف. وأحوال الأمير همداني نفسه تدل على هذا، فحين كان في الثالثة والسبعين قدم له بعض الأشرار من منطقة (بكهلي) بكشمير، السّم فكانت وفاته إلا أن هذا النوع من الاختلاف إنما يكون نتيجة لأسباب شخصية تهدف إلى الإضرار الشخصي بالداعية فحسب، بينما إنشاء فرقة دينية عن طريق تحويل مسألة غير دينية إلى مسألة دينية يعد جرماً كبيراً، إذ يسلب الجماعة المسلمة جميع النعم التي قدرها الله لها كجماعة تحمل كتابه وتتبع صراطه المستقيم.

وحياة الأمير (همداني) إنما هي مثال عمليّ تمامًا للأسلوب الإسلاميّ. فالشيء الذي ركز عليه في كفاحه ونشاطه من أجل الدعوة كان قضية (التوحيد، والآخرة)، ولم يثر على الإطلاق أية قضـــايا أخرى كالقضايا السياسية أو الاقتصادية أو الفقهية فقد كان يركز أساسًا على أصل الدين وليس على فروعه. وليس معنى هذا أن السياسة والاقتصاد عنده أمور خارجة عن الدين، أو انه كان يعدها أمورًا غير ضرورية من ناحية الآداب والمناسك. فقد كان يعرف أهمية كل منها، واتبع كل شيء إتباعًا عمليًا إلّا أن الشيء الذي ركز عليه كأساس لعمله هو الدين المتفق عليه وليس السبل المتفرقة.

كان الأمير همداني يصلي مراعيًا جميع شروط الأحكام الفقهية، ولم يسع أبدًا وراء الاختلافات الفقهية أو إثبات خطأ مذهب وترجيح مذهب آخر، وقد اتخذ ــــ أيضا ــــ منهجًا اقتصاديا وإلّا فكيف يمكنه ورفاقه أن يعيشوا، ولكنه لم يجعل حل القضايا الاقتصادية أو العمل على وحدة الأمة كلها قضية يقيم عليها أساس

حركته، وهكذا ورغم أنه لم يرفع شعار السياسة إلا انه كان يتبع سياسة عميقة وراسخة ولو لم يتبـــــع هذا الأسلوب لما كانت لكشمير اليوم هذه المكانة، فهي الولاية الوحيدة بالهند التي بها وزارة مسلمة، ولا مجال لقيام أية وزارة من أديان أخرى. وهذه الهيبة السياسية التي تتمتع بها كشمير إنما هي نتيجة لدعوة الأمير همداني. مع أنّه لم يُمض حياته كلها على أي برنامج سياسي بالمعنى المعروف، ولم يعترف به أحد كقائد سياسي، ومع أنّه لم يسع وراء شيء كهذا، وقام فقط بالاستمساك بالحقيقة المطلقة. فإنّ كل الأشياء قد سعت إليه بعد ذلك، ونال كل ما أراد أن يحققه من نشر دين الحق بين أهل منطقة كشمير.

والخلاصة أن أهمية الدّين تكمن أساسًا في نجاة الإنسانية كلية من الشرك، وتركيز جل اهتمامه على الله الواحد فقط، وهكذا تدين له الحياة بأكملها. ومن الضروري لنا أن نؤكد قبل كل شيء على الأمر، وأن نجعل منه أساسًا للدعوة والتبليغ، وبعدها يلزم إتباع طريقة ما ـــ تتطابق مع الظروف ـــ فيما يتعلق بالمستلزمات الدينية المطلوبة في المعاملات التفصيلية، وبالتالي لا يجوز إن نتخذ من تلك الأشياء أساسًا لحركة الدعوة فالإنسان حين يتخذ من مسألة أساساً لحركة الدعوة فهو إنما يجعل للمسألة الفرعية نفس مكانة المسألة الأساسية، ومثل هذا النوع من العمل من شأنه أن يصيب نظام الدّين بالاضطراب، ويدخل عليه الفوضى. فإذا أعجبك مذهب فقهي خاص أو رأي ما فلتتخذه مذهباً أو رأياً لك، ولكن لا يجوز أن تقيم على أساسه مسجدًا أو مدرسة، وإذا كنت تحترم طريقة فليكن لك ما تشاء، ولكن لا تجعلها أساسًا أو ميزانًا إسلامياً تقيس به الآخرين، فإذا أقام حاكم مسلم نظامًا على أساس الملكية أو الجمهورية، ورأيت أنت أن النظام الصحيح هو نظام آخر فلا تجعل من تلك المسألة محل نزاع سياسي في البلاد وإذا كانت لديك بصيرة، ورأيت حقوق أمتك الاقتصادية والاجتماعية قد سلبت فأغرس لدى أفراد الأمة العاطفة التي تمكنهم من القيام بالدفاع عن حقوقهم بأمانة وحل قضيتهم، ولكن لا تثير فيضانات الاحتجاجات والمطالبات ضد من تفترض أنت أنهم ظلمة، فمثل هذا النوع من السلوك إنما هو ابتعاد عن سبيل الدّين الواحد، وهو سعى وراء السبل المتفرقة، ومثل هذه المحاولات مهما كانت تحمل من حسن النوايا فهي تنشر في الواقع الفساد فقط، إذ هي لا تبعد الإنسان عن عبادة الله الحقيقة فحسب، بل تصبح سببًا في

تمزيق الأمة وتفريق الجماعات، والله لا يحبُّ بث الفرقة بين أهل أمته، ولا يمكن لمن نالوا نصر الله إن فعلوا هذا أن ينالوه مرة ثانية، كما لا يمكن أن تُعيد للأمة وحدتها السابقة .

أخلاق الداعية

ثمة شبه مدهش بين أخلاق الداعية وقواعد السلوك التي ينتهجها التاجر عن وعي منه أو عن غير وعي وإن بدئ هذا الشبه متناقض في الظاهر، ذلك أن لا الداعية ولا التاجر يمكنه ــــ رغم اختلاف الدوافع ــــ أن يسئ إلى من يتعامل معهم أو يثبط همهم فكما يقدم التاجر التنازلات لزبائنه ويتحمل منهم أنواع المضايقات والمشاكسات في سبيل ترويج بضاعته لتحقيق أرباح أكثر، فإن الداعية ــــ الذي هو دافعه واجب وهم الدعوة ــــ يعامل جماعته بكل تسامح ورحابة صدر متغاضيًا عن كل الإساءات والصعوبات التي قد يتعــرض لها بقـدر حرصه للصفح عن كل الزلل والهفوات في سلوك الآخرين التي قد تعيق سبيل قيامه بمهمته. وكما أن التاجر حريص على بذل قصارى جهده لترغيب زبائنه في شراء بضاعته وبالتالي الابتعاد عن كل ما من شأنه أن ينفرهم منه فإن الداعية يتحمل كل الصعاب في سبيل إيجاد التربة الخصبة لنشر رسالته في جو خال من التوترات والانفعالات، وكلاهما يتجنب إثارة المشاعر السلبية بأي شكل من الأشكال.

إن هذا المفهوم لأخلاق الداعية ينسجم تمامًا مع رسالة الإسلام، وكذلك مع تعاليم النّبي عيسى ــــ عليه السلام ــــ وفي هذا المقام نقتبس بعض مواعظ النّبي عيسى ــ عليه السلام ــ : «لقد سمعتم أنه قد قيل إنّ العين بالعين والسن بالسن، ولكن أنا أقوال لكم لا تردون الأذى بمثله، وكل من صفعك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر ليصفعه أيضًا، وأنه إذا ما قاضاك إنسان لأخذ معطفك منك فتنازل له عن ردائك أيضًا، ومن اضطرك على السير ميلا واحد فسر معه ميلين، وأعطه كل ما يطلبه منك ولا ترده خائبًا فيما يريد استعارته منك. لقد سمعتم أنه قيل: عليكم إن تتودّدوا بالمحبة إلى جاركم، وأن تكرهوا عدوكم، ولكن أنا أقول عليكم أن تحبوا أعداءكم، وأن تحسنوا لمن يسيء إليكم، وأن تصلوا من أجل الذين يمارسون الأحقاد ضدكم ويستضعفونكم في الأرض، وأنكم عباد الرحمن الذي يعلو فوق الخير والشر ويسخر الغيث ليسقي به العادلين والظالمين، إذ ما الذي ستجنونه من حبكم لمن يحبكم؟ أليس هذا ما يفعله العشارون. وإذا ما

اقتصرت تحيتكم على إخوتكم فقط فما الذي تختلفون فيه عن الآخرين ألا يفعل العشارون هكذا. كونوا كاملين بغير عيب قريبين من خالقكم المعصوم من كل الأخطاء والعيوب»[1].

وإن أولئك الذين لم يتوصلوا لمعرفة كنه تعاليم النّبي عيسى ـــ عليه السلام ـــ واستنباط خفاياها تجدهم ينزعون إلى عدم قبول هذه الروح السلمية والتي يرونها على أنها أفضل بقليل من الخضوع السلبي الذي لم يعد له مكان في هذا العالم المادي.

إنني أجرؤ على القول بأن هذا التحريف شنيع لتفسير الموعظة، ذلك أن ما أوصى به السيد المسيح يعتبر في واقع الأمر قواعد السلوك التي يجب أن يسير بمقتضاها الدعاة دون غيرهم من العامة ويفترض في الداعية ـــ في سبيل رسالته إلى الآخرين ـــ أن يحدث ثورة ثقافية بين الناس. وللقيام بذلك عليه أن يطبع في أفئدة الناس أن الرسالة التي يبشر بها تعتبر غاية في الأهمية وهذا لن يتأتى إلا إذا وجد المناخ الخالي من التوتر والانفعالات بين الداعية وجماعته (المدعوين)، وهذا المناخ السوي سوف لن يكون في الإمكان إيجاده إذا ما أصر الداعية على ضرورة إيجاده من قبل الجانبين. وإذا ما ربط الداعية نفسه بانفعالات الآخرين وسمح لنفسه الانزلاق في متاهات الإثارة والاستفزاز فإنه بذلك يحول دون إيجاد المحيط الملائم لتقبل الرسالة التي يبشر بها بكل عناية واهتمام. وهنا تكمن مهمة الداعية في خلق مثل هذا الجو من الوئام دونما أحد يساعده في ذلك. وعليه أن يسمو دائما وأبداً فوق اللجوء إلى الأساليب الانتقامية ويفتح المجال أمام إقامة علاقات وئام وانســـجام صادقة.

إن النزاعات والخلاف في الرأي بين الداعية ومستمعيه سببها في معظم الأحيان أمور دنيوية. ولتفادي هذه المشكلة فقد أوصى النّبي عيسى ـــ عليه السلام ـــ أتباعه بأن يكونوا في مثل هذه الحالات على استعداد لتحمل الخسارة المادية من طرف واحد للحيلولة دون وجود عراقيل تعيق سبيل نشر الرسالة. فلوا أراد جماعة المدعوين أن يسلبوا الداعية قميصه فيجب أن يكون لديه الاستعداد لتسليمهم ردائه أيضا حتى لا يتحول الانتباه عن الرسالة التي يبشّر بها.

---

(1) متّى 5/ 38 / 48.

تعاليم الإسلام

خلافًا لما يعتقده البعض فإن تعاليم الإسلام السمحة لا تختلف عن تعاليم المسيح عيسى بن مريم ـــ عليه السلام ـــ ذلك أن قواعد السلوك التي وضعها السيد المسيح ـــ عليه السلام ـــ لدعاته تعتبر مُطابقة لتلك التي سنها رسول الإسلام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبرز مثال على ذلك صهيب بن سنان وهو أحد قاطني روما جاء ليعيش ويعمل في مكة حيث أمكنه جهده وكده من تجميع ثروة هائلة من المال، وقد اعتنق الدين الإسلامي شأنه في ذلك شأن الكثيرين غيره ممن وصلتهم رسالة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي تلك الأيام كان هناك اضطهاد شنيع للمسلمين على أيدي المكيين من غير المسلمين، ولما لم يعد الأمر يطاق طلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المسلمين الهجرة إلى المدينة وهو المكان الذي هاجر إليه هو أيضا فيما بعد وسرعان ما لحق صهيب بالنّبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكنه ما كاد ينطلق في سفره حتى عثرت عليه قريش واعترضت سبيله. وقالوا له: «لقد جئتنا وأنت في حالة فقر مدقع ثم أثناء وجودك معنا في مكة تحسنت أحولك تدريجيًا إلى أن وصلت إلى هذا الثراء والبحبوحة فهل تعتقد بأننا سنتركك تهرب بعيدًا وتأخذ كل شيء معك؟». وكان هناك جدال حاد ثم سأل صهيب: «يا قوم إن تنازلت لكم عن كل ثروتي فهل ستتركون سبيلي؟» فما كان منهم إلا أن قبلوا منه ذلك وعندئذ سلم لهم صهيب كل ثروته. وعندما وصل إلى المدينة أخبر النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما حصل بينه وبين قريش. وكم كان الرسول سعيداً أن يعلم أن صهيبًا قد جاء لينظم إلى قافلة المسلمين بعد أن تنازل عن كل ما يملكه إلى العدو. وما كان من الرسول إلا أن قال له مبدئا إعجابه: «ربح البيع أبا يحيى».

كثيرة هي العبر التي يمكن الاستشهاد بها من حياة النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ـــ رضي الله عنهم ـــ لتضيء غوامض الأمور حول هذه النقطة الجوهرية. وأبرز مثال على ذلك المهاجرين الذين هاجروا إلى المدينة بعد أن تركوا ديارهم وممتلكاتهم في مكة ولم يعودوا إليها إلا بعد ثماني سنوات طوال بعد فتح مكة لم يسمح الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه باسترجاع

ممتلكاتهم من الغاصبين والسبب أن المساكن وغيرها من الأماكن كانت مازالت مشغولة بل أن هناك حالات أقدم فيها السكان المكيون على بيعها للغير.

كان على النبي محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ إن يقدم الصورة الصحيحة عن الإسلام لأولئك الذين مازالوا لم يعتنقونه وكان مصممًا على رجوعهم إلى حظيرة الإيمان. وهكذا لو أصر المسلمون على استرجاع ممتلكاتهم لا اندلعت سلسة من المنازعات والصراعات مما قد يؤدي إلى عرقلة سير نشر الدعوة الإسلامية.

وهكذا اقتضت حكمة نبينا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يمنع المهاجرين من إثارة أية قضايا مادية مع مواطنيهم من غير المسلمين.

جــزاء الصبــــر

قال الله تعالى في محكم آياته عن الصبر وسعة الصدر: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَولًا مِّمَّن دَعَا إِلى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنني مِنَ الْمُسلمينَ ۞ وَلا تَسْتوِي الْحَسنَة وَلا السيئة ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسنُ فإذا الَّذي بيْنكَ وَبَيْنه عَدَاوَة كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبرُوا وَما يُلقَّاها إلا ذُو حَظٍّ عَظِيم ۞ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[1].

تبين لنا هذه السورة من القرآن الكريم حقيقة أن المرء لكي يكون داعية للحق يجب أن تتوفر فيه صفات العفة والاستقامة. وصفة الاستقامة هنا تعني أن يكون الداعية صادقًا في القول والعمل. فإذا ما كرس الداعية حياته لتحقيق هذا الهدف فلابد أن يتمسك بالعمل وفقًا لهذا النظام. إن الداعية الصادق يجب أن يكون مخلصا لرسالته والتي يجب أن ينظر إليها على أنها أسمي هدف في نظره وما عداها فهو شيء ثانوي من حيث الأهمية. فمتى وجد مثل هذا الداعية الصادق الغيور السبيل لنشر الدعوة الإسلامية فإنه بذلك يكون قد جسد ما ذهبت إليه الآيات المذكورة أعلاه.

إن حياة الداعية يجب أن تسير وفقا لقواعد السلوك الأخلاقي بكل دقة، وحتى في الحالات التي يتعرض فيها الداعية إلى المعاملة السيئة يجب أن تكون معاملته

(1) سورة فصلت، الآيات 33 ــ 36.

للمسيئين إليه نابعة من كرم الأخلاق والمروءة، وإذا ما تعرض الداعية إلى الأذى فعليه أنّ يصلي من أجل الذين آذوه. إن الداعية يحتّم عليه واجبه أن يكون نزيه المسلك في جميع الظروف والأحوال، وتبني مثل هذا النمط من السلوك يلزم الداعية بقدر كبير من الشجاعة والصبر والمكابدة. وما من شك في أنّ مثل هذا السلوك الحسن من طرف واحد (أي من طرف الداعية) تكمن وراءه كل أسرار النجاح.

إن طبيعة الإنسان كما صنعها الخالق يمكن التغلب عليها من خلال هذه التصرفات والأفعال. وهذا يعتبر أعظم سلاح وأكثره إيجابية في يد الداعية. فكلما اكتشف الداعية أن هناك رغبة ملحة تسيطر عليه وتدفعه للانتقام ومقابلة الشر بمثله عليه أن يكبح نفسه الأمارة بالسوء ويدرك أن ذلك من عمل الشيطان. إنه الشيطان الذي يسعى لتجريده من أقوى سلاحه ـــ وهو السلوك الحسن ـــ وبالتالي جعل المستمعين إليه ينفضون من حوله وهكذا تضيع جهوده في سبيل نشر الدعوة أدراج الرياح. فلو أفلح الشيطان في إغراء الداعية فإن الداعية يكون قد خسر دنياه وآخرته. لقد أرسل الله الأنبياء والرسل ـــ عليهم السلام ـــ لإعلاء كلمته والتبشير بها. كما أخبر عنهم القرآن الكريم بأنهم قد أرسلوا لتبشير قومهم وتمني الخير لهم. وفي سورة الأعراف ذكر العديد من الأنبياء الذين خاطبوا قومهم بأنهم خلانهم المخلصين وبأنهم ما بعثوا إلا ليكونوا لهم من الناصحين الصادقين وتزويدهم بنصيحة الحق. كما أنه يجب على الداعية أن يشعر جماعته بأنه إنما يعمل من أجل صلاحهم وفلاحهم ويجب أن يكون هذا متألقاً في شخصيته التي هي مصدر كل فضائل الدعوة.

أن يكون المرء محبًا لخير الآخرين فذلك يعني رغبته وحماسه للهداية والإصلاح وسعيه من أجل صالح من يخاطبهم وليس من أجل مصلحة ذاتية تخصه وحده. فمن الصدق والإخلاص يستمد قوته للسير قدما برسالته ويستلهم المزيد من وسائل الإقناع لتحظى بالقبول. وحتى في خلوته يجب عليه أن يدع قلبه وروحه يصليان ويسبحان من أجل الآخرين. وعندما يأتي برسالته إلى مستمعيه يجب عليه أن يأخذ كل الحيطة في عرض أفكاره في هدوء ولطف وبشكل تدريجي مهما كانت عواطفه نحو الموضوع المطروح وذلك حتى لا يكون سبباً في جرح مشاعر الآخرين من حيث لا يدري.

إن الداعية يجب أن يعمل حسابًا لشخصية من يستمع إليه وكذلك طبيعة مزاجهم ومستواهم الثقافي والحالة النفسية التي هم عليها وأن يصيغ ما يود توصيله إليهم في القالب الذي يتمشى مع ذلك. إذ أن مجابهة الناس بالحقائق بغتة من شأنه أن يفزع أصحاب النفوس الضعيفة ومحدودي الثقافة مهما كان القصد من وراء تلك الحقائق نبيلاً وشريفاً. ومن هنا فإن الأمر يستدعي من الداعية أن يتحلى بالتسامح وغض البصر عن أي قصور إنساني قد يعيقه من تأدية رسالته أو يكون سبباً في تحريفها أو يعرقل سير تقدمها. إن أي استفزاز يتعرض له الداعية يجب أن يقابل بالصبر والمكابدة وأن يعالج بكل لطف ورحابة صدر بحيث لا يسمح للخلافات والخصومات ــــ تحت أي ظرف من الظروف ــــ أن تفسد جو الهدوء والسكينة اللازم للتقبل الخلقي، إذ سوف لن يكون هناك تجاوب مثمر إذا ما تبدد هذا الجو أو فسد.

الإعـــــراض

ثمة مبدأ هام يجب على الداعية مراعاته وهو (الإعراض) كما جاء في القرآن الكريم فالجاهل يجب تجنبه. وهذه مهمة يترك أمر تقديرها للداعية وحده ذلك أن الداعية مطالب بتجنب الجهل وليس جماعة المدعوين. وهذا يتطلب منه الابتعاد عن أي انفعالات أو توتر في كل ما يقال له أو يلقاه من تصرفات تهدف إلى إحباط مساعيه في سبيل نشر الدعوة، فمن مسؤولية الداعية إيجاد المناخ الملائم لنشرها مهما كان عرضة للمقاطعة بالأسئلة والملحوظات المحرجة ومهما كانت الجماعة التي يخاطبها عنيدة وصعبة المراس. يجب عليه أن يتحلى بالهدوء ورحابة الصدر وألّا يسمح لنفسه إطلاقًا بإظهار غضبه أو حتى مجرد إشارة تدل على رد فعل سلبي من جانبه. ويجب ألّا يسمح لنفسه أن تحيد عن الطريق السوي حتى ولو لم تكن هناك فرص نجاح لمهمته تلوح في الأفق.

مثـــال لامــــــع

مولانا محمد اليأس (1886م ـ 1944م) من المشاهير المصلحين المسلمين في العصر الحديث وكان من الذين أنعم الله عليهم بحساسية بالغة لنشر الدعـوة.

ونسوق إليكم هذه الواقعة التي توضح ذلك بجلاء. في الربع الأول من القرن العشرين كان مولانا اليأس يعمل في (ميوات بحريانا) (Mewat،Haryana) وهي منطقة كثيرًا ما كان يتردد عليها، وذات يوم وبينما كان مولانا منكباً على شرح أركان الدين وأحكام الصلاة لأحد (الميواتيين) و(الميواتيون) أناس يعرفون بفظاظتهم وخشونة معاملتهم وبلادة حسهم وجهلهم، وإذا بالأخير ينفجر غضبا وينقض على مولانا محمد اليأس ليرمي به بكل قسوة وشدة حتى أن اللطمة جعلته يترنح ويهوى على الأرض. لكن مولانا رغم ذلك كله تمالك نفسه وكظم غيضه، وهَّم بالوقوف وما أن استرجع وعيه من وطأة الضربة حتى خاطب مهاجمه قائلا: «أما وقد قمت بإنجاز عملك أيها (الميواتي) فدعني الآن أنجز أنا عملي وأصغ لما سأقوله لك». وهكذا دون أن يضيع لحظة واحدة في المهاترات أسلم مولانا نفسه لهذا الظلم الصارخ ولم تمض لحظات إلا وعاد مولانا من جديد يساعد (الميواتي) على تعلم أمور دينه.

إن هذا الأسلوب في معالجة الأمور بهذا اللطف والتسامح لم يسبق له مثيل من قبل وكان له أثره على (الميواتي) مما جعله ليس فقط ينشط إلى الاهتمام بالدرس بكل جد واهتمام بل جعله أيضا يبادر بطلب الصفح من مولانا عما اقترفه في حقه وهكذا أصبح (الميواتي) من المتحمسين لنشر الدعوة.

إن أخلاق الداعية ـــ باختصار شديد ـــ تحمل في مكنونها نمط سلوكي جيد من طرف واحد وأن أولئك الذين لهم الشجاعة والإقدام لتبني هذا ليكون من قواعد سلوكهم هم وحدهم القادرون على نشر دعوة الحق بل أنهم الوحيدون الجديرون بالقيام بهذا الواجب.

طريق الفطرة

لقد خلق الله لكلِّ شيءٍ قدره، فلا يتعدّى حدوده، ولا ينقص منه شيء. إنّ الشمس والقمر والنجوم تسير في مسارها بانضباط وانتظام بالغين، دون أن يَحدث خللٌ للحظة واحدة.

والجنين يتكوَّن داخل رحم المرأة وينشأ وينمو رويدًا رويدًا، حتى يخرج من بطنها في شكل إنسان كامل في وقت معين، وهكذا جعل الله لكلِّ شيءٍ قدراً: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[1].

وبهذا النظام المحكم يمكن أن يجري كلّ شيءٍ إلى مستقرّه بدون أيّ تصادم: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2]، وإنّ هذا النظام لا يقتصر على تلك الأشياء التي تظهر فيها النتيجة بحكم الله وقدره مباشرة، بل إنّ هذا النهج ينطبق أيضًا على الأمور والأعمال الإنسانيّة

حيث تظهر الأحداثُ بجهودٍ من الإنسان.

لقد اعتاد العرب قديمًا أنّه إذا اشتدّ غضب أحدهم على زوجته يطلّقها ثلاث (3) مرات أو أكثـر إلى مائـة (100) مرة، ثمّ كان يُخرجها من البيت مباشرة، فكانت هذه الأحداث تُسفر عن عدد من المشكلات الشخصية والعائلية، ولكن القرآن الكريم قرّر طريقاً للطلاق هو أنّ الإنسان إذا أراد الطلاق فعليه أن يطلّق بحساب العدة، وأن يرقب العدة باهتمام، وعليه أن يطلّق بين طهرين وشهرين متتالين، ثم في الطهر الثالث للشهر الثالث له أن يمسك زوجته بمعروف أو يسرحها بإحسان، فبهذا يصل حدث غير سار بالتدرج الفطري إلى منتهاه، والطريق الآخر للطلاق أنّ المرأة إذا كانت حاملاً وظهر حملها فترجأ عدة الحمل إلى وضع الحمل، لكي يلتزم الشخص الذي سبب الحمل أن ينفق على زوجته في بيته حتى تكمل مدة وضع الحمل .

وثمة مزايا للعمل الموسوم بالصبر والتأني بدلاً من التسرع والاستعجال، فربما وجد كلّ من الطرفين إمكانات جديدة قد تكون غير متوقعة من قبل ذلك، وإن عملاً عائليًا يسير سيره الطبيعي ليبلغ منتهاه دون أن يخلق تعقيدات وملابسات عويصة لحري بأن يصل إلى غايته بأقلّ الخسائر، وبطريقة كريمة، وإنّ الله ليصف هذا العمل بأنّه بالغ أمره: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ

(1) الرعد: من الآية 8.
(2) يس: 40.

أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[1]، فإذا اعتمد شخص على الطريق المقدّر من الله، وآمن بأنه أحسن طريق واحتمل مرارة الصبر والانتظار، فإنّ الطريق يكون ممهدًا للوصول إلى الغاية كما أنّ الالتزام بمنهج الله الذي وضعه لحياة الإنسان يراعي كافة الجوانب كاملة، لقد قرر الله نظامًا دقيقًا صحيحًا لعمل كلّ شيء بعلمه المحيط والشامل لكلّ شيء. ولن ينجح شخص في هذه الدنيا التي خلقها الله عند مخالفته لهذا النظام الذي وضعه المحيط بكلّ شيء.

(1) الطلاق: من الآية 3.

التدبير الإلهي الخفيّ

لقد ورد في القرآن الكريم عند ذكر الأحداث الواقعة في الكون: ﴿**يدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ**﴾[1]، فعُلم أنّ القرآن والكون تعبيران لحقيقة واحدة، وما فصّل في الآيات من المبادئ والحكم جُعل أساسًا لهذا الكون، فالكون تصديق عملي للقرآن، وبتعبير آخر: إن القرآن إظهار لفظي للحقيقة الربانية وإن بقية الكون إظهار عملي لتلك الحقيقة. إن الله يريد أن يبني أهل الحق بناءهم على أسس متينة في مواجهة الباطل وأن يشيدوا صرح الدين بالتضحية بالمال والوقت وبناء شخصيتهم القوية، لتكون راسخة وقوية فلا يحطمها أعداء الله ولا ينال أحد منها، إن الله يريد أن يرى دينه غالبًا على الأرض. وإن المسئولية لتقع على عاتق أهل الإيمان لكي يقوموا بدورهم في تحقيق ذلك بجهودهم وجهادهم وبعدتهم وعتادهم. وقد ضــــرب الله مثلاً في القرآن للعنكبوت فقال: ﴿**وإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾[2]، وفي مكان آخر ضرب الله مثالًا للحديد : ﴿**وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ**﴾[3]، والمعروف أنّ بيت العنكبوت ينهار بهزة خفيفة، وبلمســــة من يد أو خشب ولكن بيت الحديد يتصدى للطوفان ويقف في وجه الأعاصير، ولقد أراد الله بهذين المثالين أن ينصح المسلمين أن يبنوا بيت الدين على غرار (بيت الحديد) لا مثل بيت العنكبوت .

وإن الجانب المهم للبناء هو الجانب الذي يتضح لنا من تعاليم ديننا، وهو الاستعانة بالتدابير الخفية الإلهية في تقويض نفوذ العدو وإقامة الحق على أسس سليمة قوية، ولإيضاح هذا المبدأ ننقل آيتين من القرآن: ﴿**قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾[4]، والآية الثانية :﴿**هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**

(1) الرعد: 2.

(2) العنكبوت: من الآية 41.

(3) الحديد: من الآية 25.

(4) النحل: 26.

مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[1]، ويتبين من هذه الآيات أن من حكمة الله وسنته أن تكون جذور الأعداء هشة، ويظل هذا شأنها إلى حد القضاء عليها دون أن تشعر، فيخرّ عليهم سقفهم على حين غفلة منهم .

إننا نرى أن القرآن يسوق بعض الأمثلة التي تبين طريق الله وسنته، وإن هذه الأمثلة هي أمثلة رمزية، ولكن المقصود أن تدرك منها حكمة الله، ونعيش حياتنا مسترشدين بهذه الآيات التي تتلى في كل زمان ومكان. ومن هذه الأمثلة القرآنية هذه الأرضة التي هي دودة عدوة للإنسان، وهي دودة صغيرة حجمًا مثل النملة وأقل قوة منها، وهي لا تتحمل شدة الحرّ أو البرد، ولا تقوى على الحياة في الهواء الطلق أو في الشمس ولذلك تسير في أنبوب أو نفق من الطين، ولكن برغم هذا الوهن والضعف تلحق بالإنسان ضررًا كبيرًا، والسرّ في ذلك أن الأرضة تعمل بصمت ودأب ولا ينتبه الإنسان لها إلا حين تكمل عملها، وإذا كان باب غرفتك خشبيًا فإن الأرضة تدخل لائذة في جناحيه، وتأكل الخشب بصمت، وتترك الطلاء الجميل مثل الورق على سطح الخشب. وفضلاً على ذلك فإن مقدار ما تأكل من خشب تملؤه بالطين، وهكذا تأكل الأرضة الخشب كله دون أن تقف أنت على ذلك لأنها تترك السطح الظاهري سليمًا، وتأكل من الداخل ولأنها تسد الفراغ بالطين فلا ينهار الخشب، بل يبقى قائمًا، وعندما ينتهي الأكل يسقط الباب واهيًا على الأرض. ومن زاوية أخرى نجد مثالاً للكلب، فالكلب يريد أن يعضّ الإنسان ولكن قلما ينجح في عضه والسبب أنه ينبح من بعيد عندما يرى الإنسان وبالتالي فإن الإنسان يتنبه ويدافع عن نفسه، وهكذا تنجح الأرضة في خطتها ويفشل الكلب في خطته. وليس نصيب الكلب إلا النباح أما نصيب الأرضة فأكثر نجاحًا من الكلب، لأن الأرضة تعمل بصمت، واستمرار وأما الكلب فكثير النباح والعويل. إن القرآن الكريم يسوق لنا هذين المثالين ليخبرنا عن طريق النجاح ويدلنا على أسباب الفشل. ونحن نتبين من القرآن الكريم أن ميزة الإنسان هي عدم الصبر والاستعجال، ويعتبر الاستعجال أكبر ضعف في الإنسان وطريق

---

(1) الحشر:2.

الصواب هو ــــ دائماً ــــ طريق الأناة والصبر والجلد وعدم التعجل في الوصول إلى النتيجة. والاستعجال هو تمني الحصول على النتيجة دون استيفاء الشروط اللازمة للحصول عليها، فمثلاً شجرة (الحور) يكتمل نموها في مائة (100) سنة، فإذا تمنى الإنسان أن يستقر الشجر ويكتمل في بضع سنين، فإن هذا استعجال أمر لا يمكن تحقيقه في هذه الدنيا، لأن الله لا يغير سننه وفق هوى من يتمنى ويستعجل ويريد تغيير خطة الله الطبيعية في هذا العالم. إن هذا النظام محكم إلى أبعد حدود، وليس فيه استثناء لأحد، ومن يتعدّ حدود الله وينتهك نظامه فسيعود ذلك بالضرر عليه. ونسوق في هذا المقام مثلاً من قصة سيدنا موسى ــــ عليه السلام ــــ عندما وصل إلى صحراء سيناء مع قومه، وفرض الله على موسى ــــ عليه السلام ــــ مدة شهر واحد للعبادة على جبل الطور ووعده أن يمنحه الشريعة بعد قضاء هذه الفترة، وبموجب هذا كان على موسى ــــ عليه السلام ــــ أن يصل إلى الطور في مستهل شهر ذي القعدة ولكن موسى ــــ عليه السلام ــــ وصل قبل الموعد بعشرة أيام فسأل الله تعالى موسى عليه السلام:

﴿**وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا موسى ۞ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ۞ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ**﴾[1]. لقد كان موسى عليه السلام مشتاقًا لأن يصل سريعًا إلى الطور، ففوض مسئولية رعاية بني إسرائيل إلى أخيه هارون، ووصل إلى الجبل قبل الموعد بعشرة (10) أيام، ولا شك أن هذا العمل كان دافعه الحصول على رضا الله، ولكن ذلك ألحق الضرر بقومه، وقد كان موسى ــــ عليه السلام ــــ قائدًا ومرشدًا لقومه، ولم يكن لهارون عليه السلام حتى ذلك الوقت هيمنة على القوم ولم يستقر أمره عليهم بعد، فعندما غادر موسى ــــ عليه السلام ــــ إلى الجبل استطار شرّ المفسدين من القوم، وسيطروا وقادوا بني إسرائيل إلى عبادة العجل، فكان هذا الاستعجال سببًا فيما ظهر من بني إسرائيل رغم أن دافعه التقرب إلى الله ، ومع ذلك فإن الله لم يفعل ما كان يحرص عليه موسى ــــ عليه السلام ــــ ولم يمنحه الألواح قبل الميعاد، ولم يكن بوسع موسى ــــ عليه السلام ــــ بالرغم من الإخلاص وحسن النية إلا أن ينتظر المدة المقررة، مع ما تحمله من ثمن استعجاله ومخالفته لطبائع الأمور .

---

(1) طه:83–85.

منهج الإصلاح التدريجي

لقد بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ برسالته لتحقيق السعادة والفلاح للإنسان، وبالتالي كان لابد من تحريم الخمر، ولكن النّبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يمنع الناس من الخمر مدة تقترب من نصف السنوات التي كانت بعد البعثة. لقد ترك الناس على حالهم، فقد كان ــ صلى الله عليه وسلم ــ في أول الأمر يهذب الطبائع بذكر الله وتوحيده والإنذار بالآخرة، وبعد هذه المدة نزلت الآية الأولى عن الخمر، فتحدثت عن كراهية الخمر وما فيها من آثام ومنافع، لكي تستعد الأذهان لقبول التحريم: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**﴾(1)، عقب هذا القول الكريم بدأ بعض ذوي العقول يفكرون في تحريمها وذهبوا يتساءلون عنه، ولم يكن قد نزل حتى ذلك الوقت الحكم البات الصريح بالتحريم. ثم نزل حكم آخر عن الخمر في العام الرابع للهجرة ولكن لم يكن ذلك من قبيل النهي الواضح، بل كان يتضح من البيان أن الخمر ليست بشيء مستحسن، كما كانت تُفرض القيود على تعاطيها في أوقات الصلاة: (يا أيها الّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾(2)، وبعد هذا الحكم بمدة قصيرة نزلت حرمة الخمر في القرآن الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**﴾(3)، لقد أضحت العقول مهيأة لهذا الحكم، فما أن نزلت هذه الآية حتى أعلن الناس « انتهينا ربنا انتهينا ربنا » وأسالوا أوعية الخمور على الأرض، روت عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ عن حكمة التدريج التي اتخذت في حرمة الخمر فقالت: « إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا

(1) البقرة: من الآية219.

(2) النساء: من الآية 43.

(3) المائدة: 90، 91.

ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول ما نزل لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً... ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً »[1].

الإقدام بعد الاستحكام

من أهم الأهداف التي بُعث لأجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ في العرب تطهير الحرم من الشرك وكافة الأوثان والأدناس، وإعادته إلى مركز التوحيد الذي كان أيام إبراهيم وإسماعيل ـــ عليهما السلام ـــ فعندما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ كان عدد الأصنام ثلاثمائة وستين (360) صنمًا، وكانت الأصنام موضوعـــــة في الكعبة، وكان المشركون يطوفون بالكعبة عراة، وقد غيّروا أيام الحج، وابتدعوا (النسيء) لهذا الغرض، وفي هذا الوسط عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ (13) سنة تقريبًا في مكة، ولكن لم ينهض أبداً لكسر الأصنام، ولم يقم أصحابه بمظاهرات احتجاجية في مكة ضد هذه الأصنام، بل ظل يدعو إلى التوحيد والآخرة، وامتنع عن اتخاذ أية خطوة عملية ضد الأصنام .

ويظهر من الوثائق التاريخية أنه عندما تم فتح مكة في عام (8هـ) وتولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ السلطة في مركز العرب ومعقله (أم القرى) ودخل مكة جالسًا على متن الإبل، بدأ يطوف بالكعبة حيث كان حولها (360) صنمًا، وكانت بيده جريدة من شجرة فبدأ يضرب كل صنم بالجريدة حتى سقط كل صنم من الأصنام على وجهه على الأرض ثم طرحت جميع هذه الأصنام، وعندما كان يفعل ذلك يردد بلسانه هذه الآيـــة: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾[2]. إن تطهير الحرم من الأصنام كان مطلوبًا من اليوم الأول، ولكن لم يمس الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ هذه الأصنام قبل الوصول إلى القوة المتدرجة، الحصول على السلطة، وقد ركز كل انتباهه على إثبات التوحيد والدعوة إلى الآخرة ولم يقم بعمل التطهير الفعلي إلا بعد أن سيطر على مكة على أكمل وجه ولم يبق هناك من يقاومه في هذا العمل.

(1) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب- تأليف القرآن ، رقم الحديث4609-.
(2) الإسراء: 81 .

اتخاذ طريق الحكمة رغم السلطة والقوة

عندما بُعث النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان العرب يطوفون حول الكعبة عراة ويرون أن الكعبة أقدس مكان على وجه الأرض، فيجب على الإنسان الطواف حوله متخلّياً عن جميع الحواجز حتى من الثياب. كان ذلك عيّبًا كبيرًا يكرهه النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أشد الكره، وقد أقام (13 سنة) في مكة بعد البعثة ولم يحتج على ذلك. وفي أخريات أيام إقامته بمكة عندما بلغ عدد أتباعه مائة مسلم كان بإمكانه أن يتخذ من هذه العادة السيئة قضية ويقوم بالاحتجاج والتظاهر ضدها، ولكنه لم يفعل ذلك، وامتنع عن اتخاذ مثل هذه الإجراءات امتناعًا كاملاً. ثم مضت الأيام وحرك الله التاريخ نحو الأفضل حتى تم فتح مكة في عام (8هـ) وقد كانت مكة مركزًا قياديًا للأقطار العربية حين ذاك، ولكن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يتخذ أي خطوة لمنع طواف العراة حول الكعبة. وعندما جاء موسم الحج بعد فتح مكة بأربعة أشهر، حجّ المشركون على سنتهم عراة، ولكنه لم يفرض الحظر عليهم في هذا العام أيضًا، بل حجّ المسلمون على طريقتهم، والمشركون على طريقتهم. ثم حلّ موسم الحجّ في العام التالي، وكان ثاني حجّ بعد قيام الدولة الإسلامية في جزيرة العرب (وقلعتها مكة)، ولم يمنع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ المشركين عن عادتهم السيئة هذه المرة أيضًا، بل حجّ المسلمون على طريقتهم، وكان أميرهم في هذا الحج أبوبكر ــ رضي الله عنه ــ ، وحج المشركون على طريقتهم، ولكن في السنة التالية قبيل موسم الحــــج بعث النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ عليّاً ــ رضي الله عنه ــ إلى مكة وعلّمه أن يُعلن في الحج أنه: « لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان »[1]، وهكذا لم يذهب الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ رغم فتح مكة إلى مكة للحج في عامي (8 ، 9 هـ). إنه تحمل الحج بطريقة المشركين بعد فتح مكة عامين ولم يحج بنفسه حتى فرض الحظر في العالم الثالث من الفتح سنة (10هـ)، ثم سافر إلى مكة، وأرسى مناسك الحج، وكان ذلك آخر حج لرسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وهو الذي يُدعى بـ (حجة الوداع) .

---

(1) البخاري: كتاب الصلاة، باب ما يستر من العورة، رقم الحديث356-.

ضرورة التغيير بطريقة طبيعية

لقد أنشأ إبراهيم وإسماعيل ــــ عليهما السلام ــــ نظامًا للحج بعد بناء الكعبة وكان ذلك النظام مرتبًا على التاريخ القمري، ولذلك كان يأتي في مواسم مختلفة، أحيانًا في الشتاء، وأحيانًا في الصيف، ورأى أهل مكة بعد ذلك أن هذا الاختلاف والتغيير في مواسم الحج يلحق بهم ضررًا تجاريًا، فقد جعل أهل العرب من الحج مكسبًا ومرتزقًا لهم، وكان ذلك مصدر رفاهية وهناء لهم بالطبع، ولكن اختلاف مواسم الحج كان عقبة في طريق انتعاش معيشتهم... وسبب ذلك أن النخلة في العرب تصبح يانعة في أيام الصيف وتكون مصدر رخاء لهم تزدهر بها التجارة وتنتعش المعيشة ويزداد نشاط الحلّ والترحال، ولذلك يكون الحج في موسم الصيف رابحًا وباعثًا على التحسن المعيشي، وعلى العكس من ذلك، فإن الحج في الشتاء تبور فيه التجارة، وقد غلبت المصالح الدنيوية على المصالح الدينية لدى أهل مكة فلجأوا إلى طريق النسيء (Intercalation) الذي اقتبسوه من اليهود والنصارى، فأدخلوا التعديل على النظام الزماني الديني وحولوا الحج إلى التقويم الشمسي، والمعروف أن التاريخ الشمسي يختلف عن التاريخ القمري بزيادة أحد عشر يومًا، فلجعل التاريخ القمري معادلاً للتاريخ الشمسي أخذ أهل مكة يزيدون أيامًا فيه حتى يتعادل التقويمان، ويترتب على ذلك زيادة ثلاث أشهر بعد كل ثماني سنوات في التاريخ القمري. فكأن شهراً (أنسئ) بعد كل ثلاث سنوات. ويدخل هذا التغيير في الأشهر الحُرم بما فيها شهر ذي الحجة، فكانت الأشهر تتغير كل (33 سنة) وكذلك كانت تتغير مواسم الحج تبعاً لها، ثم بعد دوران (33 سنة) تعود الأشهر إلى مكانتها الأولى. ولمّا بعث محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان من مسئوليته ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يبدل هذا المرسوم الجاهلي ويقرر أيام الحج في ذي الحجة بالتاريخ القمري جريًا على سنّة إبراهيم ــــ عليه السلام ــــ، وعندما تم فتح مكة وقوي مركز الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان بإمكانه أن يغير هذا المرسوم فورًا ويعلن إلغائه، ولكنه لم يفعل ذلك.

لقد كان الحج في عام (8هـ، 9 هـ) يصادف ذا القعدة وفق المرسوم الجاهلي، وكان حج عام (10هـ) يصادف ذا الحجة وذلك بعد مضي (33عامًا)، ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ يريد تغيير المرسوم فورًا، لأعلن بعد فتح مكة

بأن الحج في العام المقبل سيكون في ذي الحجة طبقاً لسنّة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ وليس في ذي القعدة، ولكنه لم يتعجل بل انتظر وصبر على حج الناس في ذي القعدة عامين متتاليين حتى لا يحدث ارتباك ، وفي العام الثالث عندما صادف موسم الحج شهر ذي الحجة (بطريق طبيعي)، أعلن أن الحج سيبقى دومًا في ذي الحجة ، فقال في خطبته في حجة الوداع في العام العاشر للهجرة: « إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاَثٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَةِ، وَذُو الحِجَّةِ، وَالمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ،... »[1].

الإصلاح بدون هدم العرف المتبع

من غزوات النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ غزوة تدعى (**المريسع أو بني المصطلق**)، وقد وقعت في عام (5هـ) فقد أخبر النّبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن حارث بن أبي ضرار رئيس قبيلة بني المصطلق جهّز جيشا، لأجل القيام بحملة على المدينة، فسيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ جيشًا، وبادر بالحملة عليهم فلم يقدروا على المقاومة وقتل منهم عشر أشخاص وأسر الرجال والنساء والأطفال وحصل المسلمون من الغنيمة على ألفي رأس من الإبل وخمسة آلاف رأس من الغنم، وكان الذين أُسروا ينتمون إلى مائتي أســـرة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ يريد استمالتهم إلى الإسلام بالإحسان إليهم، ولكنه لا يريد ذلك بكسر العرف والعادة، وكان هؤلاء الأسرى ملكًا لأفراد الجيش حسب العرف المتبع والتقليد، ولو أعلن بأنهم أحرار لكان ذلك تحطيمًا للتقليد الشائع والعرف المتبع، فلهذا دبر تدبيرًا حكيمًا ناجحًا وهادئاً. لقد كان من بين أسرى هذه الحرب بنت رئيس القبيلة (الحارث ابن أبي ضرار) وتسمى (جويرية) وكانت أرمل، وعند تقسيم الغنائم نالها (ثابت بن قيس الأنصاري) وأراد ثابت بن قيس أن يكاتبها إذا دفعت مبلغًا معينًا فيمكن به عتقها، فجاءت (جويرية) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ، وطلبت معونة منه لأداء ثمن المكاتبة، فقال رسول

(1) صحيح البخاري 7/ 100.

الله صلى الله عليه وسلم ـ هل أدلك على أمر خير من هذا وهو أن أدفع المال وأتزوجك بعد العتق؟ فقبلت هذا العرض.

وبهذا تحررت جويرية وزوّجت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ـ، ولما كانت جويرية ابنة رئيس القبيلة فقد أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ صهرًا لجميع رجال القبيلة جريًا على العرف القبلي، وحين علم المهاجرون والأنصار بأمر المصاهرة شق عليهم إن يبقوا رجال القبائل عبيدًا، فأعتقوهم، فلنت قلوب رجال بني المصطلق نتيجة هذه المعاملة والمصاهرة عن ذي قبل، وفي ضوء هذا السلوك الحسن المنقطع النظير في النظام القبائلي تأثر المشركون بشدة، ودخلوا زرافات في دين الله.. ولذلك قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن (جويرية): «ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها».

الحركات المعاصرة

لقد قام المسلمون في هذا العصر بحركات عديدة لإحياء المسلمين. ولقيت كثير من هذه الحركات قبولاً وشعبية من جماهير المسلمين غير أن هذه الحركات لم تنجح في تحقيق الأماني المنشودة، والسبب في هذا الفشل أنّ هذه الحركات لم تعتمد منهج الفطرة الطبيعي، ولم يتبعوا سنة الله التي تقررت لكل عمل، والتي نجد نماذجها موجودة في الكون، بل اتخذت بعض هذه الحركات طريق الفوضى والصخب وإحداث القلاقل والبلبلة، ولم تتخذ طريق العمل الصامت الدؤوب، وقد أرادوها قفزة كبيرة ليصلوا إلى الغاية بين عشية وضحاها، ولم يسيروا سيرًا طبيعيًا متأنيًا، ولم يتبنوا طريق الدربة والتأني ورباطة الجأش، بل عمدوا إلى التسرع والعجلة، فقاموا بأعمال كبيرة قبل أن يدعموا مواقفهم، وتحركوا بالعواطف الملتهبة بدلا من الحكمة والتعقل، وقبل أن يشيدوا أساسهم، شرعوا ببناء الصرح الأعلى، ولم يلتزموا بالتدرج من القليل إلى الكثير، بل أرادوا انجاز الكثير من أول يوم من أعمالهم، وقد ترتب على ذلك كله أنهم فشلوا فشلا ذريعًا في جميع حركاتهم .

وبداهة فإنه لا يمكن النجاح في هذه الدنيا دون السير على طريق سنة الله. وأي مسار آخر لن يصل بالإنسان إلى الهدف الصحيح، فإذا كان الله قد جعل سر

الفلاح والنجاح في الصبر، فلا يمكن الفوز اعتمادًا على رنة الخطب والكلمات الطنانة، وإذا سن الله سنن خاصة للجهود التي تحتاج للوقت فلا يمكن الوصول إلى المراد قبل إكمال هذه الفترة. وإذا أقر الله مبدأ التدرج لعمل بالغ الأهمية، فلا يمكن بلوغه ولو بقفزة كبيرة، وإذا كانت إرادة الله ألا يتخذ المرء خطوة كبيرة بدون التمكن الذاتي، فلا يمكن إحراز الهدف باتخاذ خطوات عاجلة طائشة، وإذا أراد الله حل مسائل هذه الدنيا عن طريق العمل الجدي، فلا يكون تسويتها بإلهاب العواطف، ولقد جعل الله سر الإصلاح في بناء الشخصية وتقويم السلوك، فلا يمكن بلوغه بإحداث الثورات والانقلابات الاجتماعية. هذه هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

تاريخ الدّعوة الإسلامية

إنّ المسلمين أمة تنتمي إلى خاتم النبيين محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ. إن هذه الحيثية للأمة الإسلامية هي التي تحدد ماهية المسئولية التي كلّفوا بها في هذه الدنيا، وتلك المسئولية هي قيامهم بمهمة الدعوة إلى الله. المهمة التي يبعث الأنبياء والرسل من أجل الاضطلاع بها في العصور الماضية. ولا شك أن سلسة النبوة قد خُتمت بعد وفاة النّبي العربي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن العمل النّبوي لم ينقطع، ومازال مستمرًا ومطلوبًا بالتمام. والحقيقة أن المسلمين هم في مقام تبليغ الرسالة، ومن هنا فلا يمكن أن يتحقق وجودهم (كأمة) بأي عمل آخر غير الاضطلاع بالعمل النبوي.

ما هو العمل النبوي؟ إنه إيصال رسالة الله إلى عباده، وإبلاغ دعوة التوحيد إلى الغارقين في الشرك والوثنية، وإنذار الذين: ﴿**الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾[1]، باليوم الآخر الذي لا ريب في قدومه، وإطلاع كل فرد من البشر على أنه ليس حرًا طليقًا يتصرف في حياته كيف يشاء بل إنّه خاضع لأوامر الله تعالى وهو مسئول عن تنفيذها، فعليه أن يعيش حياة ملتزمة منضبطة، وليس له أن يحيى حياة متحررة من كل القيود والحدود، وبإيجاز إن العمل النبوي يتلخص في تبليغ ذلك العلم الربّاني المحفوظ في صـــــورة (الكتاب والسنة) إلى كافة البشر بطريقة كاملة مُكتملة حتى لا يجد أحد منهم فرصة في الآخرة لأن يقول أنه كان غافلاً عن هذا، وإن الدعوة لم تصل إليه .

هذه هي الفريضة الأصلية التي مسئوليتها على الأمة الإسلامية بحكم مركزها ومكانتها وإمكاناتها، ولكن للأسف الشديد فأن هذه الفريضة الكبرى قد **أهملها المسلمون اليوم أشد إهمال**، وتقاعسوا عن تأديتها أكثر من أي شيء آخر، وما من سبب لهذا الإهمال والتقاعس الإجرامي سوى أن المسلمين المعاصرين قد أخذت مشاكلهم المختلفة وبخاصة القومية بمجامع قلوبهم، وسيطرت

(1) الكهف: 104.

على أذهانهم، فنتج عن ذلك أن قضية الدعوة وتبعاتها قد غابت واحتجبت عن أنظارهم.

حدث لي أن قابلت مسلمًا كان يتمتع بثقافة عالية ـــ أثناء إحدى رحلاتي إلى العالم العربي ـــ وخلال حديثي معه قلت له: «إن الواجب الحقيقي الملقى على عاتق المسلمين هو أن ينهضوا بإبلاغ رسالة الإسلام إلى الأمم غير المسلمة». فأجابني في الحال: «وكيف يمكن ذلك؟! فالمسلمين المعاصرين اليوم تنوء كواهلهم بأعباء المشكلات التي تخصهم، وإنهم لم يتمكنوا من تسويتها والتغلب عليها فكيف يجدوا الفرصة (الوقت) للقيام بنشر الدعوة فيمن دونهم من الأمم».

إن الإجابة السابقة الذكر تعكس تلك الحالة النفسية التي دفعت المسلمين في العصر الماضي إلى أن ينبذوا عملية الدعوة العمومية نبذا كليًا، إن ما استحوذ على مشاعرهم، وأخذ منهم كل مأخذ إنما هي مشاكلهم الدفاعية، وصار شغلهم الشاغل يتمثل في الزعم بأن: «كيانهم القومي معرض للخطر». ولذا فكل عنايتهم وطاقاتهم ارتكزت وتمحورت حول خطوط الدفاع، وقد استولى هذا الهم عليهم حتى أفقدهم الوعي والشعور بمسئوليات الدعوة، ومما يبعث على الأسف أن فقدان الوعي الصحيح بالمسئولية أدى بالكثير من المسلمين إلى أن أضفوا عنوان (الدعوة الإسلامية) على ممارساتهم الدفاعية.

إن هذا التفكير لا يمت بأية صلة إلى الإسلام، ولا إلى القرآن الكريم. فمن وجهة القرآن الكريم أن قضية حماية المسلمين هي الأخرى منوطة بعملية الدعوة نفسها، فلئن قام المسلمون بعملية الدعوة إلى الله فإنّ كيانهم القومي مضمون الحماية من قبل الله تعالى. وإن لم يقوموا بعملية الدعوة إلى الله، فلا ضمان لحماية كيانهم القومي البتة، والتاريخ المعاصر للمسلمين يشهد على صدق الأمر الثاني.

الحماية عن طريق الدعوة

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[1]، وبخصوص أسباب النزول لهذه الآية الكريمة ، وردت روايات عديدة في كتب الحديث والتفسير، منها ما روي عن ابن عباس عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال: « لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعًا، وعرفت أن من الناس من يكذبني فأنزل الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ**﴾[2]، وجاء في رواية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ كان يُحرس حتى نزلت هذه الآية، فأخرج رأسه من قُبة أدم وقال : «انصرفوا أيّها الناس فقد عصمني الله »(3)، وعن مجاهد قال لما نزلت :﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ**﴾[4]. قال: يا رب كيف أصنع وأنا وحدي يجتمعون علي؟ فنزلت: ﴿**وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾[5]،وقوله تعالى: ﴿**وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[6]،أي بلغ أنت رسالتي وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك.

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: كان النّبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يحْرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿**وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[7]، قالت فأخرج النّبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ رأسه من القبة وقال: «انصرفوا أيّها الناس فقد عصمني الله».

فمن هذه الآية يظهر بجلاء أن سر **(العصمة من الناس)** إنما هو منطو تحت **(الدعوة إلى الله)**. إذ كانت الظروف قاضية بحراسة الرسول وكلائه فلم يعد ثمة

---

(1) المائدة: 67.
(2) المائدة: من الآية67.
(3) صفوة التفاسير، المجلد الأول، ص 355.
(4) المائدة: من الآية67.
(5) المائدة: 67.
(6) المائدة: من الآية67.
(7) المائدة: من الآية67.

من حاجة إلى إفراد قطاع من الجهد على حدة لمواجهتها، لأن عملية الدعوة هي نفسها قد تكفلت له بالعصمة أيضا، وإن كان موعود العصمة من قبل الله لرسوله بصورة خاصة وأصلية، ولكنه يشمل أمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذلك تبعا له .

إن هذه لحقيقة ذات أهمية أساسية وينبغي أن نستعرض ونعالج جميع شئوننا وقضايانا في ضوء هذه الحقيقة، فإذا ما أحيط أهل الإسلام بخطر يعكس مشكلة العصمة والحماية ممن دونهم، فلا يكون له من سبب سوى أن الأمة قد أهملت فريضة الدعوة إلى الله ونبذتها، وإذا ما نهضت الأمة بفريضة الدعوة إلى الله فلتتأكد هي أن الله قد ضمن لها العصمة من كل الأخطار والتهديدات الخارجية وليست هناك حاجة تبعث إلى إفراد قطاع من الجهد على حدة لمجابهتها...بل التركيز الكلي على بذل الجهود والقطاعات بعملية الدعوة إلى الله، وأما فيما يتعلق بالمخاوف والأخطار الأخرى، فالأخذ بالتربص والصبر، لأن أشباحها وظلالها المخيفة، تأخذ تتقلص وتنحسر وتتلاشى تلقائيا فيما بعد. وتجنبا لسوء الفهم ينبغي أن نشير هنا إلى أن المراد بالدعوة في هذا المقام هو دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، وبعبارة أخرى إيصال رسالة الله إلى عباده الذين لم يدخلوا بعد في دائرة طاعته، وحيثما ورد لفظ الدعوة أو التبليغ في القرآن الكريم فإنما ورد في هذا المعنى، أي إيصال الدعوة إلى غير المسلمين، أما ما يجب علينا حيال جماعة المسلمين أنفسهم، فإن القرآن الكريم يذكره بكلمات: **(التذكير، والإصلاح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما إلى ذلك..)**، ويمكن لنا أن نطلق اسم الدعوة والتبليغ على ممارسة الإصلاح الديني داخل المجتمع الإسلامي على سبيل التجوز إلا أن العملية التي سميت بالدعوة حقيقة إنما هي (عملية إبلاغ الأمم غير المسلمة برسالة الله) دون الإصلاح الداخلي للمجتمع المسلم .

وقد ذكر القرآن قصة «**رجل مؤمن**» في زمن سيدنا موسى ـــ عليه السلام ـــ كان من أمراء فرعون، آمن بالله ولم يزل يكتم إيمانه حتى كان اليوم الذي أصدر فيه فرعون قراره النهائي في شأن موسى ـــ عليه السلام ـــ، وهو أنه سيقتله ويقضي على ما جاء به.. فلم يتمكن «الرجل المؤمن» من الصبر والسكوت عن الحق، فقام محاميا على موسى ـــ عليه السلام ـــ وكلم فرعون وأمراءه بأسلوب جعل كلامه خطابًا دعويًا بكل معاني الكلمة.

وهذه المرحلة كانت غاية في الحرج والخطورة، فإن فرعون كان قد أعلن عداوته لموسى ـــ عليه السلام ـــ صراحة، فكان طبيعيًا أن يصبح هو معاديًا كذلك لمن أراد موالاة موسى ـــ عليه السلام ـــ والقيام معه، ويعاملهما بنوع واحد من التعذيب والمكر السيئ، ولكن « الرجل المؤمن « لم تخوفه المخاوف، ولم تستعبده المصالح الأخرى، وأبى إلا أن يؤثر المجاهرة بالحق وتبليغه على كل ما سواه. وبعد أن نقل القرآن الكريم خطاب « الرجل المؤمن» قال: ﴿**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ**﴾[1]. إن هذه الآية تدل دلالة واضحة على أن الذي كان قد صار درعًا واقيًا للرجل المؤمن من سيئات ما مكروا هو دعوة الحق فإن الرجل المؤمن لم يكن لديه شيء من ثروة أو رأسمال سوى معرفة الحق ودعوته، بينما كان فرعون عدوه، يملك كل أنواع القوى المادية، ولكن الرجل المؤمن حيثما قام بدوره كداع إلى الحق، تغمده الله بعنايته وحمايته، ولم يتمكن فرعون ـــ رغم كل طاقاته ـــ من تحقيق نواياه المشؤومة، وإنفاذ ما مكر به من سيئات. إن عصمة القائمين بعملية الدعوة إلى الله موعود إلهي حق ـــ لَا رَيْبَ فِيهِ ـــ ولكن تحقيق هذا الوعد متوقف على القيام بعملية الدعوة الحقيقية، دون أي عمل سواها، ولو تشاغلنا بأي عمل آخر ثم أضفينا عليه عنوان (الدعوة إلى الله) فليس لنا أن نتوقع أبدا أن وعد الله سيتحقق ليعصمنا مما نتعرض له من أخطار ومهالك في طريقنا.

---

(1) غافر: 45.

شهادة التاريخ

إنّ التاريخ الإسلامي غني بالأمثلة والشواهد التي تؤكد على الإخبار القرآني بصورة مذهلة، والمتضمن بأن **العصمة والحماية والنصرة تأتي عن طريق الدعوة إلى الله**، فمنذ القرن الأوّل إلى ما تلاه من القرون حدث غير مرّة أن أهل الإسلام تعرضوا لأخطار وتهديداتٍ أثارت لديهم مشكلة الحماية من غير المسلمين، وإنّ الشيء الذي أتى بحل لهذه المشكلة في كل مرة لم يكن سوى قوة (الدعوة **إلى الله**). والحماية عن طريق الدعوة تتمثل في صور شتى، فلو كان أهل الإسلام قد بلّغوا رسالة الله بأقصى وأقوى ما يملكون من القدوة والوسائل ولكن المدعوين ــ بالرغم من ذلك ــ أَبَوْا إلا التمسك بالعناد والمكابرة في الجحود والإنكار، فإن الأمر في مثل هذا الوضع يرتبط مباشرة بذات الله تعالى فيأتي عند ذلك نصر من قبل الله بصورة غير عادية، وبالتالي يصبح أتباع الحق على أعدائهم ظاهرين.. وما حدث مع سيدنا هود وسيدنا لوط ــ عليهما السلام ــ كان مثالاً لهذا النوع من النصر والحماية. إن دين الله هو في الحقيقة صدى لفطرة الإنسان نفسه، وإن قيامك بالدعوة إلى الحق يعني كأنك تطرق باب القلب الإنساني، وعلى هذا فالإنسان حين يُرزق شيئًا من الجدية، فإن قلبه لا يكاد يتمالك شيئا إلا أن يستجيب لنداء فطرته، ويتساوق معه، وهو وإن لم يقبله بصورة رسمية، فإنه على كل حال، يضمر كل الحب والنصح لأولئك الذين يكلمونه بما يخفق به فؤاده بذاته، وإنه يأخذ الإحساس بأن هؤلاء جديرون بأن يُناصروا على الحد الأدنى، على الصعيد الإنساني والأخلاقي. ومثال ذلك قصة يوسف الصديق ــ عليه السلام – مع الملك في مصر.

والصورة الثالثة للحماية عن طريق الدعوة والتي يمكن أن يقال بأنها الصورة النهائية تتمثل في أن يتأثر بها المدعو بما يدعوه إليه الداعي لدرجة تجعله مستعدًا لأن يقبله ويؤمن به، وقد تكرر حدوث هذه الصورة الأخيرة أيضًا على امتداد التاريخ الإسلامي.

وعندما تحدث هذه الصورة فإن المشاكل الطارئة هناك، وبكل أبعادها وأنواعها، تأخذ ــــ على أعقاب ذلك ــــ طريقها إلى الانتهاء والتلاشي تلقائيًا، وقد حدثت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ هذه الصورة الثالثة، وقد كانت أكمل مثال من هذا النوع مما حصل معه ــ صلى الله عليه وسلم ــ.

اعتراف (توماس كارليل)

لقد اعترف (توماس كارليل) (1795م ــ 1881م) بما في الدعوة الإسلامية من قوة تسخيريه حيث قال: «كثيرًا ما دار على الألسنة وتردد، أن محمدًا نشر دينه بالسيف، السيف حقا، ولكن كيف لك أن تجد هذا السيف! فإنه ما من فكر محدث إلا كان في أول أمره منحصرًا بالضرورة في أقلية فرد واحد، فهو ينشأ أول ما ينشأ في مخ إنسان واحد فحسب، ولا يوجد ثمة غير واحد في الدنيا بأكملها، من يؤمن بذلك، فرد واحد مقابل بني الإنسان أجمع، تُرى ــــ والحالة هذه ــــ لئن قام ذلك الرجل متقلد السيف وأخذ يمارس الدعاية لفكره ولنشر عقيدته هل يحقق أي مردود بهذا الأسلوب؟». وفيما يلي صفحات نشير إلى بعض الشواهد من التاريخ الإسلامي تتضمن دلالة واقعية على الاعتبار التسخيري للدعوة.

التخطيط الإنساني والتخطيط الربّاني

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ في مكة نحو ثلاث عشر (13) سنة، وفي أواخر أيامه بمكة دبّر المشركون خطة للقضاء عليه وعلى ما جاء به بصورة نهائية، وقد تشعبت في شأنه الآراء بين أشرافهم وذلك ما ذكره القرآن الكريم في الآية: ﴿**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾[1]، إن الخطة التي دبرها المشركون لإبعاد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن ساحتهم حددت في: **الإثبات (الأسر)، أو القتل، أو الإخراج**، ولكن الآية تخبرنا بأن الله تعالى أحبط تلك الخطة الجائرة بتدبير أفضل

(1) الأنفال: 30.

وإتقان أكثر، فماذا كان ذلك المشروع الإلهي؟ وهنا يفيدنا التاريخ أن في نفس الوقت الذي كان المشركون بمكة يحيكون فيها التدابير للقضـــــاء عليه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعث النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ برجلين مسلمين من مكة إلى المدينة، فشرعا هناك في نشر رسالة الإسلام بالمدينة مما أسفر عن دخول عدد كبير من أهالي المدينة في الإسلام، ومع مرور الأيام أخذ عدد أولئك المعتنقين للإسلام يتزايد، حتى أخذوا طابع الأغلبية الساحقة في المدينة. فلم يلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ بعد ذلك أن هاجر سرًا من مكة إلى المدينة. وذلك ما ينطــــــوي عليـــــه قـــول النّبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ: « أُمرتُ بقرية تأكل القرى »، وتلك الآية تدل دلالة واضحة على ما يوجد من الفارق النوعي بين التخطيط الإنساني والتدبير الرباني، فهي تفيد أن التخطيط الإنساني إنما يسير على صعيد **(الأسر، والقتل، والإخراج)**. بينما التدبير الرباني يسير على صعيد تسخير القلوب عن طريق **(الدعوة والتبليغ)**.

إن تفكير الإنسان حين يهم للقضاء على عدوه، وتجميد نشاطاته، لا يعدو التخطيط للقيام بأسره، أو إخراجه من مقره، أو قتله وهكذا.. إلا أن الله ينتهج طريقًا يختلف كل الاختلاف، إنه تعالى يدخل عباده في القرى بوصفهم مبلغين عنه ودعاة إلى دينه، ثم إنه تعالى يشرح صدور الناس لرسالته، فعبر هذا الطريق لا يطول الأمد حتى تأخذ مجموعة فاعلة من الناس في الانضمام إلى دين الحق، والانصهار في بوتقته مما يزيد دين الحق عزة لدرجة تجعل أتباعه في حصانة حصينة، ومنعة منيعة، عن كل مكر يدبره الأعداء للاعتداء عليهم.

كلمـــة مُسَخّـــرةٌ

عن ابن عباس ــ رضي الله عنه ــ أنه لما حضرت وفاة أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ مشى من أشراف قريش إليه، وقالوا له:

«قد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه وخذ لنا منه، وخذ له منا ليكف عنا، ولنكف عنه..»، فبعث أبو طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ فجاءه. فقال له: يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قريش، قد اجتمعوا إليك فقل لهم ماذا تريد منهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ: « نعم كلمة واحدة، تعطونها

تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم ». فقالوا: «وما تلك الكلمة؟» ، فقال: «تقولون لا إلٰه إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه»[1].

إن النّبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ حينما قام بدعوة الحق في مكة، كان في أقلية الواحد في العالم، ولكن سرعان ما اجتذبت كلماته، أو بلفظ آخر، قوة فكره أصحاب العقول الواعية والقلوب السليمة من العرب، ورغم ما واجهه من اعتراضات عنيفة في بد أمره، ولكن مما لا يمكن إنكاره كذلك أن رسالته ــــ مع جميع العراقيل والعقبات التي وضعت في طريقها ــــ كانت لديها نوع من الجاذبية والتأثير القوي الذي يجذب أولى الفكر والألمعية والجدية من الناس.

ومما حدث في أوائل العهد المكي ــــ وهو لا علاقة له مباشرة بما نحن بصدده ــــ أن الطفيل بن عمرو الدوسي قدم مكة حاجًا، وقد كان سيدًا مطاعًا شريفًا في قومه، فأجتمع به رجال من أشراف قريش، وحذروه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ، ونهوه عن الاجتماع به أو الاستماع لكـــلامه، ووصفـوا النّبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأنه ساحر، فلما غدا الطفيل بن عمرو إلى بيت الله، وعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ قائم يصلي عند الكعبة فحشا أذنيه قطنًا، خوفًا من أن يبلغه شيء من قوله، وهو لا يريد أن يسمعه. ولكنه بعد إذ راجع موقفه من هذا الأمر، وقال في نفسه: إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفي على الحسن من القبيح، فما الذي يحوجني إلى أن أسد أذني بالقطن؟ لا، بل إني لأسمع من محمد ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته. قال: فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وقصصت عليه ما جرى بيني وبين قومه قال: ثم قلت اعرض عليّ أمرك، فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ الإسلام وتلا عليه شيئًا من القرآن الكريم، قال: والله، ما سمعت قولاً قطّ أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه. وعند ذلك أسلم الطفيل بن عمرو وشهد شهادة الحق.

(1) السيرة النبوية لأبن كثير.

الهجــرة إلى الحبشــة

كانت مكة يسودها الشرك من أقصاها إلى أقصاها حين بدأ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ بدعوة الناس إلى التوحيد وصار الناس يخالفونه ويعارضونه، ويذيقون اتباعه أنواعًا من العذاب، ويفتنونهم عن دينهم بكل ما استطاعوا من حول وحيلة، فلما رأى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما يُصنع بأصحابه ـــ وهو غير قادر على حمايتهم مما يُسامون من سوء العذاب ـــ أشار عليهم أن يخرجوا إلى أرض الحبشة وذلك في السنة الخامسة (5) من البعثة، فوقعت الهجرة إلى الحبشة بعد ذلك مرتين، ويبلغ عدد من هاجر من أصحابه ــ صلى الله عليه وسلم ــ من حيث المجموع نحو مئة وعشرين (120) نفرًا.

وحين بلغ المشركين أن أصحاب محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد هاجروا إلى الحبشة، وأصابوا هناك أمنًا وعافية. تذمروا فاجتمعوا يتشاورن في أمرهم فاختاروا رجلين منهم وهما عمرو بن العاص، وعبد الله بن ربيعة ليذهبا إلى النجاشي ملك الحبشة، ويطلبا منه ردهم إلى بلادهم. فأتيا وقدّما إليه وإلى بطارقته هدايا كثيـــــرة، فقـــالا له: «أيها الملك، أنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وقد بعثنا أشراف قومهم لتردهم إليهم». وهذه قصة طويلة، وملخصها، أن بطارقة النجاشي أنفسهم قاموا يشيرون عليه بان يسلم المسلمين إليهما، ويردهم إلى مكـة مخدوعين بما حشيا آذانهم من الأقاويل. وكانت المرحلة حرجة وغاية في الخطورة فإن العودة آنئذ كانت تعني الوقوع في مخالب الأسد ثانيًا، ولكن الذي يرجع إليه فضل إنقاذ المسلمين من سلبيات هذه المرحلة الخطيرة هو (الدعوة) التي قد حملها أولئك الفقراء معهم، من موطنهم إلى مهجرهم. وفي نهاية المطاف استقر الرأي على إن يحضر المسلمون في مجلس النجاشي، ويخبروه ما هو الدين الذي أتاهم به النّبي العربي فقام عند ذلك جعفر بن أبي طالب ــ رضي الله عنه ــ ، وألقى خطبة في المجلس الملكي، وقد ذكرت هذه الخطبة في كل كتب السيرة ، ثم تلا جعفر عليهم صدرًا من سورة مريم، وروايات هذا الخبر تقول: أنه لما سمع الملك وبطارقته ما سمعوا من القرآن الكريم اغرورقت عيونهم بالدمع، وانساب دموع الملك حتى أخضلت لحيته، وبعد ذلك أمر النجاشي إن يُرد على الرسولين ما جاءا به من الهدايا من

جهة، ومن جهة أخرى رد على المسلمين ردًا كريمًا وأمَّنهم وخرج عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من عنده مقبوحين، وأقام المسلمون بخير دارٍ مع خير جار.

إسلام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ

حتى السنة السادسة (6) من البعثة النبوية كان قد دخل في الإسلام عدد ملحوظ من أهالي مكة، ولكن معظم هؤلاء المسلمين كانوا من الطبقة المستضعفة، لذلك لم يبلغ الإسلام درجة من العزة والشوكة تمنحه صلاحية فرض الهيبة على الآخرين، وحماية من يعتنقه، وظل الحال على ما هو عليه إلى إن فتح بشكل رائد، باب آخر وذلك عن طريق الدعوة، فلقد كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بمكة: « اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين »، وبعد ذلك كانت رحى الأيام تدور، وتتقلب صروف الدهر إلى أن كان اليوم الذي أعلن فيه أبو جهل وهو سيد مكة إذ ذاك بأنه سيعطى مائة (100) ناقة لمن يقتل محمدًا، وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من أقوياء أو قل عمالقة مكة، شديد البطش والشكيمة، لا يرام ما وراء ظهره .

فخرج بعد أن سمع هذا الإعلان متوشِّحاً سيفه، يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ليقتله، ويحصل على المائة ناقة، وبينما هو في بعض الطريق يمشي، إذ بلغه إن أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد قد ارتدا عن دين آبائهما، ودخلا في الإسلام فاستشاط عمر غضبًا، ورجع عامدًا إلى بيت أخته، وبطش بختنه سعيد بن زيد. فقامت إليه أخته، لتكفه عن زوجها فضربها، فشجها، فلما فعل بهما ذلك، قالت له أخته وختنه نعم، نحن قد أسلمنا، وآمنا بالله وبرسوله فاصنع ما بدا لك، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، وارعوى، وطلب منهما أن يخبروه بشيءٍ عن هذا الدين الذي اختاراه. فأعطته أخته الصحيفة وفيها سورة (طه) من القرآن الكريم، فلما قرأ منها صدرًا قال: « ما أحسن هذا الكلام وأكرمه».
وعلى الجملة فإن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قد عمد بعد ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ حتى لقيه، وآمن به، وبايعه على الإسلام، وبما أن عمر ـ رضي الله عنه ـ كان رجلا شديد الشكيمة، لم يكن يرام ما وراء ظهره،

وقامته بلغت من طولها درجة جعلت رأسه يصطدم بالباب عندما دخل المسجد النبوي بعد تمام بنائه في المدينة. فلا جرم أن دخول شخص كهذا في الإسلام كان نصرًا عظيمًا للإسلام وأهله. ولم يتحقق هذا النصر العظيم للإسلام إلا عن طريق الدعوة، فقد قال عبد الله بن مسعود ــ رضي الله عنه ــ: « إن إسلام عمر كان فتحًا، ولقد كنّا ما نقدر على أن نصلي عند الكعبة، حتى أسلم عمر ــ رضي الله عنه ــ، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه ».

إسـلام قبائـل يثرب

إن الإسلام دين بني على الفطرة، وما من امرئ إلا وهذا الدين يقرع باب قلبه، وفطرته تتجاوب معه، فإن لم تكن ثمة من عرقلة نفسية تحول بين المرء وفطرته، فهو لا يملك أن يتخذ إزاءه أي موقف سوى الخضوع لتصديقه والإيمان بحقانيته، ولقد كان الأنصار بالمدينة (قبيلتي الأوس والخزرج) خير نموذج تاريخي لهذا الموقف.

يروى أن سويد بن الصامت قدم مكة حاجًا أو معتمرًا، وكان قومه يسمونه (الكامل) لجلده ونسبه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ قد بعث وأمر بالدعوة، فتصدى له حين سمع به ودعاه إلى الإسلام، فقال له سويد: «فلعل الذي معك مثل الذي معي». فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ:

«أعرضها **عليّ**»، فعرضها، فقال: «إن هذا حسن، ومعي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله عزّ وجلّ نورًا وهدى». فتلا عليه القرآن الكريم، فلم يبعد منه، وقال: « إن هذا القول أحسن » .ثم قدم أبو الحسير انس بن رافع مكة، ومعه رهط من الأوس، وفي ذلك الوقت كانت نيران الحرب متّقدة بين الأوس والخزرج، وكانوا قد جاؤوا ليلتمسوا النصرة من قريش على الخزرج، فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ أتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: « هل لكم إلى أفضل مما جئتم له؟ »، قالـوا: « وما ذاك » فذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن الكريم، فقال غلام حدث من الوفد يقال له إياس بن معاذ: « أي قوم هذا والله خير مما جئتم له »، غير أنهم لم يعتنقوا الإسلام عند ذلك الوقت، وانصرفوا إلى المدينة.

وبعد ذلك خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ في الموسم يلقى فيه الوافدين من شتى قبائل العرب القادمين من أجل زيارة الكعبة، فيدعوهم إلى الإسلام، وذلك شأنه في كل موسم، فلقي في تلك الأثناء عند العقبة رهطًا من الخزرج، وهم ستة رجال منهم أسعد بن زرارة وآخرون غيره. وبعد أن فاتحهم الحديث ذكر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ الإسلام، وتلا عليهم شيئًا من القرآن الكريم، وقد كان في نفوس هؤلاء القوم شيءٌ مما كانوا يسمعونه وهم في المدينة من اليهود عن بعثة نبي قرب وقت ظهوره، فلما سمعوا كلامه ــ صلى الله عليه وسلم ــ، لم يلبثوا أن عرفوا أنه هو ذلك النّبي. فقال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون إنه للنّبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه وصدقوه وأسلموا.

انتشار الإسلام في المدينة

ثم انصرف هؤلاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ بعد اعتناقهم الإسلام، راجعين إلى بلادهم، فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وأخذوا في تعريفهم الإسلام حتى فشا بينهم، ولم تبق دار من دور الأنصار إلّا وفيها ذكر الإسلام ورسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، حتى إذا جاء العام المقبل أتى الموسم من أهل المدينة اثنا عشر رجلاً، وكانوا قد تأثروا بالإسلام قبل قدومهم، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وبايعوه على الإسلام بيعة تسمى بيعة النساء ذلك أنه كان مما بايعوه عليه في هذه البيعة ــ مع قبول الإسلام ــ أن يمنعوه ــ صلى الله عليه وسلم ــ مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، وهي المعروفة في التاريخ الإسلامي ببيعة (العقبة الأولى).
فلما انصرف القوم بعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ مصعب بن عمير ــ رضي الله عنه ــ وأمره أن يُقرئهم القرآن الكريم، فكان يسمى في المدينة (المقرئ). وفي ذلك الوقت كان من أبرز رؤساء المدينة أسيد بن حضير، فلما بلغه انتشار الإسلام في المدينة، ثار غضبه، ذلك بما خُيّل إليه أن الذين قدموا من مكة، إنما جاؤوا هنا لتسفيه ضعفائنا وصرفهم عن دين آبائهم، فأخذ أسيد حربته، وانطلق يبحث عن أمثال هؤلاء الناس ليزجرهم وينفيهم عن المدينة. وبينما هو

كذلك إذ رأى مصعب بن عمير ــ رضي الله عنه ــ في حائط، وهو جالس بين أناس يعلمهم الإسلام فوقف عليه متشمتا، وقال: إنّما جاء بكم إلينا أن تصرفوا ضعفاءَنا عن دينهم، فقال مصعب بن عمير ــ رضي الله عنه ــ: «أَوَ تجلس فتسمع فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره». فقال:

«أنصَفت»، ثم ركز حربته وجلس يستمع إليه، فكلّمه مصعب بن عمير ــ رضي الله عنه ــ بالإسلام، وقرأ عيه آيات من القرآن الكريم، بعد أن سمع ما سمع، لم يلبث أن تغير رأيه، وقال: «ما أحسنه وأجمله..» ،ثم قام واغتسل، وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ودخل الإسلام. وقد حدث مثل ذلك مع سعد بن معاذ ــ رضي الله عنه ــ ، ثاني زعماء المدينة مرتبة إذ ذاك، هو ــ أيضا ــ مثل أسيد بن حضير ــ رضي الله عنه ــ أغضبه انتشار الإسلام في المدينة حين سمع عنه للمرة الأولى، فأخذ حربته وانطلق إلى أولئك النفر من المسلمين ليزجرهم، ولما انتهى إلى مصعب بن عمير ــ رضي الله عنه ــ قال له مصعب بن عمير ــ رضي الله عنه ــ مثل الذي قال لأسيد، ثم عرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن الكريم، قال: فعرفنا والله في وجهه الإسلام، ثم قال لهم سائلاً: « كيف تصنعون إذا أنتم دخلتم في هذا الدين؟ »، فقال مصعب بن عمير ــ رضي الله عنه ــ: « تغتسل وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين »، فقام سعد بن معاذ ــ رضي الله عنه ــ ، وفعل مثل الذي قيل له. ودخل في الإسلام. ثم أقبل عامدًا إلى نادي قومه، ومعه أسيد بن حضير ــ رضي الله عنه ــ، فقال لهم: «يا بني عبد الأشهل: كيف تعلمون أمري فيكم؟» قالوا: «سيدنا وأفضلنا رأيًا»، قال: «فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام، حتى تؤمنوا بالله ورسوله» فما أمسى في دار بني عبد الأشهل، رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمةً.

إن قبائل المدينة كانت على بساطة الفطرة، وكانت طبائعهم على أكمل درجة من السلامة والبعد عن التكلّف. ولم يكونوا يعلمون الإعراض عن الحق بعد إذ جاءهم وعرفوه، الأمر الذي ساعد على تصعيد سرعة انتشار الإسلام في المدينة، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون، ونساء مسلمات. ثم رجع مصعب بن عمير ــ رضي الله عنه ــ إلى مكة، وخرج معه سبعون رجلا وامرأتان، فلما فرغوا من الحج خرجوا ــ حسب اتفاق مسبق ــ لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ ليلاً، فبايعوه، وهذه البيعة تسمي بيعة العقبة الثانية. ومن

جملة التفاصيل التي وردت ضمن هذه القصة في كتب السير أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ قال العباس بن عبادة بن نفله الأنصاري: «يا معشر الخزرج هل تدرون على ما تبايعون هذا الرجل.. إنكم تبايعونـه على حرب الأحمر والأسود» قالوا: «**فمالنا** يا رسول الله إن نحن وافينا؟»، قال: «**الجنة**»، قالوا: «**ابسط** يدك»، فبسط يده، فبايعوه»[1].

الهجـرة إلى المدينـة

كان العربي في قديم الزمان يقضي حياته في منعة من قبيلته، فالقبيلة كانت تتكفل بحمايته من اعتداءات الآخرين. وقد كان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ينتمي إلى قبيلة بني هاشم، التي كانت في ذلك الحين تحت رئاسة أبي طالب بن عبد المطلب، ولمّا حلت السنة العاشرة من البعثة، مات أبو طالب، فعُهد بمنصب الرئاسة بعد ذلك، طبقًا للعرف القبلي، إلى أبي لهب، ولكن أبا لهب بعد أن تولّى الرئاسة امتنع عن حمايـة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ والقيام دونه، متخليًا عن حمايته.

وقد كان ذلك أمرًا شديد الخطورة، فإن حرمان أي شخص من حماية قبيلته في تلك الأزمنة كان يعني إباحة دمه وكلّ ما يملكه ومن يعتدي عليه فلا سبيل أو خوف عليه. لذا فأن معارضي النّبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يلبثوا بعد ذلك أن اجترأوا على إيذائه والاعتداء عليه، كما جاء في كتب السيرة أن قريشًا نالت من أذى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه ترابًا. وبدأ بوضوح، أنّ الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يعد بإمكانه البقاء والإقامة بمكة، غير أنه في الوقت نفسه لاح أمامه موطن جديد عظيم الشأن، وذلك عن طريق الدعوة، ففي السنة الحادية عشرة من البعثة قدم مكة جماعة من أهل المدينة لزيارة الكعبة، وفي خلال تلك الزيارة تأثروا بدعـوته ــ صلى الله عليه وسلم ــ فاعتنقوا الإسلام، وبعد عام وافى الموسم آخرون في عدد أكبر من ذي قبل من سكان المدينة، وبعد أن استمعوا إلى ما قرأ عليهم الرسول من القرآن أسلموا، ولمّا تجهزوا للانصراف

(1) التفسير المظهري، المجلد الثاني، ص107-112 باختصار وتصرف.

بُعث معهم رجلين من مسلمي مكة (عبد الله ابن أم مكتوم، ومصعب بن عمير)، لتعليم القرآن الكريم والإسلام، فلما انتهيا إلى المدينة، تناولا الناس هناك بتلاوة القرآن عليهم، وتبيين تعاليم الإسلام لهم وقد كانت أرض المدينة منبتًا حسنًا لبذرة الدعوة الإسلامية فجعل الإسلام يفشو في منازل الأنصار حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون .

ولمّا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أن المدينة قد توفرت فيها ظروف مواتية للإسلام أمر المسلمين بالخروج إليها، فطفقوا يهاجرون، حتى انتقلت غالبيتهم من مكة إلى المدينة، ومن جانب آخر رأى المشركون في مكة أن هذه الظاهرة ضربًا من التهديد لهم، إذ إنهم ظنوا أن المسلمين إنما هاجروا للمدينة لكي يجعلوها مركزا لعملياتهم العدوانية ضدهم فقرروا بعزيمة العمل على القضاء على رسول الإسلام قبل أن يأتيهم مسلمو المدينة بما يكرهون، ولكن ـــ الآن ـــ لم يعد بمقدورهم فعل أي شيء، ففي الليلة التي أرادوا فيها تنفيذ ما أرادوا من اغتياله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غادر ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة ووصل إلى المدينة. وعقب ذلك دخل الإسلام في مرحلة تكوين تاريخي جديد في المدينة، وإن الذي قد شق الطريق نحو تكوين هذا التاريخ الجديد، إنما هو (الدعوة) من غير شك.

مدى انتشار الدعوة الإسلامية بعد صلح الحديبية

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بمكة نحو ثلاث عشرة (13) سنة، ولم يزل بها حتى أرغم على مفارقة مكة والهجرة إلى المدينة نتيجة لما قام به أهل مكة من العداوة وإثارة الخلافات العنيفة، ولكن ذلك كله لم يخفف شيئًا من حدة غضب المشركين في مكة، بل زادهم ذلك غيظًا وحقدا وخُيّل إليهم أنهم لو تركوا المسلمين وشأنهم غير مكترثين لأمرهم فلا يبعد أن يزدادوا قوة وجرأة عليهم، ويمكنهم من شن هجوم على مكة متى وجدوا الفرصة لذلك سانحة، فما لبثوا أن بادروا بأنفسهم على إضرام نار الحروب والصراع ضد أهل الإسلام فاحتدمت على إثر ذلك بعض المعارك الكبيرة مثل بدر وأحد، وأخرى كثيرة مما يمكن تشبيهها بالاشتباكات أو المناوشات. ومن حيث المجموع يبلغ عدد هذه

المواقع ـــ على وجه التقريب ـــ نحو ثمانين موقعه. لقد كانت الحروب تنشب تلو الحروب، وظل الوضع المتوتر بين الطائفتين، أهل الشرك وأهل التوحيد قائما كما هو، إلى أن أقام رسـول الله صلى الله عليه وسلم ــ بوضع خطة دعوية دقيقة وفق التعليم الذي ألهمه الله تعالى، وتلك هي الخطة التي تعرف بصلح الحديبية سنة (6هـ) في التاريخ الإسلامي، وقد ورد ذكرها في كتب الحديث كلها مفصلة.

وخلاصة القول، أن وقائع وأحداثًا متنوعة انكشفت أخيرًا عن المرحلة التي كانت مبدأ انعقاد مفاوضات الصلح بين الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمشركين في موضع الحديبية. وقد اقترح عليه الصلاة والسلام، أن يتعاقد الطرفان على اتفاقية سلام لمدة سنوات عشر، أما المشركون في مكة فلما دُعوا إلى التفاوض حول هذا الاقتراح، لم يرضوا به طواعية بل اشترطوا لتوقيع اتفاقية السلام شروطًا اتسمت بالانحياز الكلي إلى طرف واحد، فمن تلك الشروط المجحفة مثلا أنهم قالوا: إن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأصحابه ـــ رضي الله عنهم ـــ يرجعون عامهم من الحديبية إلى المدينة من دون أن يدخلوا ويطوفوا بالبيت، وأن من أتى المسلمين من قريش ردوه عليهم وعلى العكس من ذلك من قدم قريشًا من المسلمين لم يردوه عليهم، وقد وصلت بالمشركين النخوة والحمية درجة لم يرضوا معها أن يكتب في وثيقة الصلح (محمد رسول الله) وأبوا إلا أن يكتب محمد بن عبد الله، وما إلى ذلك من شروط وأحاديث شحنت بالإهانة والإثارة، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ قابل انحيازهم الكلي بعدم الانحياز متذرعًا بالصبر والأعراض لمواجهة حميتهم الجاهلية. فانصرف راجعًا من الحديبية بعد أن تعاقد مع المشركين على اتفاقية سلام لمدة عشر (10) سنوات في ظل الإذعان لشروط المشركين ولم يكن الغرض من ذلك الإذعان الأحادي لشروط المشركين المنحازة ـــ في هذه الاتفاقية ـــ سـوى السعي لتمهيد طريق الدعـوة وتأمينه، وهذا ما كان فقد «أمن الناس بعد ذلك، واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان»[1] .

إنّ المسيرة الدعوية التي انطلقت بعد أن وضعت الحرب أوزارها، أسفرت عن رفع وزيادة نسبة المنظمين من أفراد القبائل إلى الإسلام، فبينما كان عدد

(1) تفسير ابن كثير ط العلمية 7/ 304

المسلمين ذوي الكفاءة الحربية لا يتجاوز عند صلح الحديبية ألفا ونصف ألف مسلم، فقد بلغت عدتهم في مدة أقل من سنتين اثنتين، إلى عشرة آلاف، وعندما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بجنوده إلى مكة، لم يكد أبو سفيان يراهم حتى نادى بأعلى صوته: «يا معشر قريش. هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

الـدعــوة قــوة لا تقهـر ولا تفنـى

أقام ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة إلى ذي القعدة من سنة (6) هجرية، ومنها خرج يريد مكة معتمرًا، وكان معه أصحابه البالغ عددهم أربعمائة وألف (1400). ولم يزل يسير بهم حتى نزل الحديبية التي بينها وبين مكة تسعة أميال بعد خطب طويل، وكانت قريش قد سمعت بمسيره إلى مكة، فبعثت برجالها إليه ليصدوه عنها فدارت بينه وبين رسل قريش مفاوضات استغرقت أسبوعين، ولكنهم لم يرضوا ولم يسمحوا له بأن يدخل مكة ويزور البيت ويُتمّ العمرة حتى كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو المنصرف نزولًا على ما اشترطت قريش من شروط اتفاقية الهدنة، التي تسمى بصلح الحديبية في التاريخ. وعلى إثر العودة من هذا السفر، قام ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتوجيه الكتب الدعوية إلى الملوك والرؤساء حول بلاد العرب، وقد كان ذلك في السنة السابعة (7) من الهجرة، وفيما يلي أسماء الذين وجهت إليهم تلك الكتب:

1- هرقل عظيـــم الروم.

2- المنذر بن ساوى صاحب البحرين.

3- خسر وابرويزعظيم فارس.

4- جيفر وعبد جلندري شاه عمّـــان.

5- النجاشي ملك الحبشة.

6- هوده بن علي صاحب اليمـــامة.

7- المقوقس ملك مصـــــر والإسكندرية.

8- الحارث بن أبي شمَّر الغساني صاحب دمشـــــــق.

ومع أن بعض الأمراء تلقوا رسالته الدعوية بالكبرياء والشموخ، واستحقوا الغضب الإلهي على ما صنعوا بها، ولكنها أيضًا كانت سببًا في دخول مهابة الإسلام في نفوسهم وتأثير دعوته في قلوب أكثرهم ورد وإجابة العديد منهم، فقد قال قيصر ملك الروم لبطارقته بعد أن تُرجم له مضمون كتاب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ: «فهلموا فلنتبع، ولنصدقه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا»، كما كتب صاحب اليمامة في جوابه مبدئيا إعجابه بدعوته عليه السلام يقول: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله». إن الفترة التي لم يكن الإسلام فيها في موقف يمكنه من التقدم والمبادرة ماديًا، كان في موقف يمكنه ــــ من الناحية الفكرية ــــ من مخاطبة ملوك العصر بجرأة واقتدار. ولم يكن ذلك إلا معجزة من معجزات الدعوة، ربما يمكن لعدوّ من أعداء الإسلام أن يضع عقبات في طريق مبادرة الإسلام المادية، ولكن لا يمكن لأحد البتة أن يحول بين الإسلام وبين مبادرته الفكرية.

المدّ الإسلاميّ خارج الجزيرة العربية

لم يلحق رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ بربه إلا وقد كان الإسلام سائدًا في الجزيرة العربية، ولكن الأمم المجاورة للجزيرة لم تكن تدين بدين الإسلام، كما كانت لغتها وحضارتها تختلف تمامًا عن حضارة الإسلام ولغته، ولم يكن ذلك القطاع الجغرافي المترامي الأطراف الذي نسميه اليوم بـ (العالم العربي) قد ظهر إلى الوجود حتى ذلك الوقت. وقد كان هذا الوضع يشكّل خطرًا مستقلاً بالنسبة لوجود الإسلام وبقائه، والحقيقة هي أن الإسلام لو ظل منحصرًا في شبه الجزيرة العربية لم يكن بإمكانه أن يبقى على قيد الحياة في الأزمنة المتوالية، ولكي يبقى الإسلام حقًّا ويحيى حياة دائمة ومستقلة، لم يكن بدًّا من إظهار الدين الإسلامي، وإعطاء لغته وحضارته الاعتبار الغالب على قطاعات مترامية من المعمورة، ولم يكد ينقضي نصف قرن بعد وفاة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى تم تحقيق هذا الواقع هو الآخر. ولكن الحقيقة التي لابدّ من ملاحظتها في هذا الخصوص هي أن العامل الأساسي الذي كان يكمن وراء إحداث هذا الحادث العظيم هــــو (قوة الإسلام الدعوية) دون قوته السياسية. والحقيقة أن القوة السياسية غير قادرة تمامًا على إحداث واقع من هذا النوع، ولو كان بإمكان القوة السياسية أن تحول

الناس إلى دين غير الدين الذي يدينون به لكان من الأجدر أن تدين دول كالهند، وباكستان، وبنغلاديش بالديانة المسيحية.

وعلى إثر وفاة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أخذت الحروب تنشب بين المسلمين وبين الأمم القاطنة خارج بلاد العرب، وفي فترة وجيزة جدًا استطاع المسلمون إن يفتحوا مجموعة كبيرة من المناطق ما بين آسيا وافريقية. إلا انه من الحقائق الصارخة، المعلومة لدى كل من له إلمام بالتاريخ، أن هناك في تلك البلاد المفتوحة لم تتخذ ـــ في يوم من الأيام ـــ إجراءات إجبارية لإرغام الناس على اعتناق الدين الإسلامي. لنأخذ مصر مثلاً، التي فتحها المسلمون في عهد الخليفة الثاني عمر الفاروق ـــ رضي الله عنه ـــ فقد كتب أحد باحثي الموسوعة البريطانية وهو يتوخى تسليط الضوء على تاريخ مصر يقول: «إن المسلمين سرعان ما استولوا على أرض مصر بالفتح في سنة 642 من الميلاد، ولكنهم قد التزموا بشدة مبدأ التسامح الديني إنه لم تكن ثمة من محاولة اعتداء أو إكراه، بل ولم تكن كذلك حتى ممارسة للإقناع على الصعيد الحكومي، لحث المصريين على اعتناق الإسلام، إن الحكام العرب قد أخذوا على أنفسهم العهد بالحفاظ على الكنائس المسيحية».

كذلك اعترف البروفيسور: (ت. دبليو ارنولد)، في كتابه «**الدعوة إلى الإسلام**» بتمسك فاتحي مصر المسلمين بالتسامح بصورة كاملة، فكتب يقول: «**وليس** هناك مما يدل على أن انضمام المسيحيين في مصر إلى الإسلام على ذلك النطاق الواسع، كان ناشئًا عن أي اضطهاد أو ضغط غير عادل من جانب الحكام الجـــــــدد (أي المسلمين)». كما كتب البروفيسور (ارنولد) في موضع آخر، يقول: «**إن** دخول المصريين في الإسلام، لم يكن قط، نتيجة لأي نوع من الاضطهاد السياسي أو العسكري».

وهنا يعرض سؤال: كيف أمكن دخول أغلبية المصريين الساحقة في الإسلام مع أنه لم يكن هناك شيء من القهر والاضطهاد لحملهم قسرًا على تغير دينهم؟ ولقد رد على هذا السؤال، السيد (آرثر كيت)، أحد خبراء الآثار المصرية، قائلا: «أن السيف ليس هو من أخضع المصريين، بل الذي أخضعهم هو القرآن الكريم».

وهكذا فأننا نجد في كل البلاد المفتوحة، بدون استثناء غياب ممارسة أي نوع من الإجبار أو الاضطهاد، في سبيل تطويع سكانها من غير المسلمين، حتى يندمجوا في الدين الإسلامي. وإنما قوة الدعوة الإسلامية هي وحدها التي عملت على تسخيرهم، وفي أمد ليس ببعيد جذبتهم إلى سماحة الإسلام. إنهم كانوا يسمعون عن الإسلام أثناء احتكاكاتهم، ومقابلاتهم اليومية مع المسلمين الذين دخلوا بلادهم كما أنهم تناولوا الكتب الإسلامية بالدراسة والمطالعة مما قادهم لإدراك أن الإسلام أكثر منطقية وأقرب للعقل مقارنة بما ورثوا على آبائهم من تعاليم وطقوس دينية، وأن تعاليم الإسلام على درجة أكبر من البساطة والقابلية للتطبيق العملي، واستجابة لهذا التأثر والانطباع شرعوا في اعتناق الإسلام، وظل عددهم يتزايد حتى أنضم إلى الإسلام أغلبيتهم، لتتشكل بالتالي خريطة جغرافية جديدة للعالم الوليد يطلق عليه (العالم الإسلامي) .

إســلام الأتـراك الســلاجقـة

قام سلجوق أحد رؤساء أتراك الغُزّ، بتجهيز جيش من القبائل، وشنّ هجوما على غربي آسيا، في القرن الحادي عشر المسيحي، وعلى يديه تأسست مملكة قوية، وطيدة الأركان، امتد نفوذها إلى بلاد الأردن، والشام، والعراق، وفلسطين، وما إليها من البلدان التي كانت من قبل تحت سيطرة المسلمين، وأرسى السلاجقة الأتراك بتلك المناطق قواعد مملكتهم بعد إن أخضعوا عسكر المسلمين لسلطانهم، ولقد خلف سلجوق الكثير من القادة السلاجقة، منهم طغرل بك (المتوفى 1063م) وألب أرسلان (المتوفى 1073 م).

ومن الحوادث عظيمة الشأن في التاريخ الإسلامي، أن أولئك الأتراك السلاجقة الذين كانوا في البداية قبائل اتسمت بالهمجية والبربرية، لم يلبثوا أن اعتنقوا الإسلام، وأصبحوا حماة للإسلام، وذائدين عن حياضه لما يربو عن القرنين من الزمان. وقد تمكن الأتراك السلاجقة من توحيد صفوف المسلمين وجمع كلمتهم في العالم الإسلامي بأسره، بعد أن قضوا على ما كان بين الشيعة وأهل السنة من خلافات. كما أنهم شيدوا مساجد كبيرة شامخة، وبناء مدارس فخمة عامرة، كما لعبوا دورًا مهمًا في صدّ الغزوات المسيحية ضد الإسلام.

وتزخر مؤلفاتنا التاريخية، برصيد ضخم من البطولات والمآثر التي تُعزى إلى الأتراك السلاجقة، غير أنّ هذه المؤلفات لا تردُّ عليك بشيء إذا ما تساءلت: كيف، وفي أي وضع قدر للسلاجقة اعتناق الإسلام؟ وما السر الكامن وراء ذلك؟

إن هذا نقص فادح في تدوين تاريخينا الإسلامي، فالتاريخ الإسلامي المدوّن في الوقت الذي يزخر فيه بحكايات وأقاصيص غاية في التفصيل فيما يتعلق بالوقائع الحربية والفتوحات السياسية نجده لا يسمن ولا يغني من جوع شيئا فيما يتعلق بتفاصيل ذلك (الفتح الأعظم)، المتمثل في تمكن الإسلام في قلوب الناس، واستمرارية دخول الأقوام والشعوب في حظيرة الإسلام أفواجًا.

إن كتب التاريخ الإسلامي المتداولة، تفيدنا كثيرًا عن (دولة السلاجقة) ولكنها لا تخبرنا بشي عن (إسلامهم)، وربما لا تجد في تراث الأدب الإسلامي بأكمله، كتابًا جديرًا بالذكر يتناول موضوع تاريخ الدعوة إلى الإسلام غير كتاب واحد، ومؤلفه يدعى: (ت، دبليو ارنولد). وقد كتب البروفيسور أرنولد ـ حين يتناول الحادثة المذكورة ـ يقول:

« In the hours of its political degration، Islam has achieved some of its Most brilliant spiritual conquests: on two great historical occasions، infidel barbarians have set their feet on the necks of the followers of the prophet، _ the Seljuk Turks in the eleventh and the Mongols in the thirteenth century، _ and in each case the conquerors have accepted the religion of the conquered » (p.2).

«لقد قُيّض للإسلام أن يحرز بعض فتوحاته الروحية البالغة في الروعة والمثيرة للإعجاب، في وقت ألم به التدهور السياسي، وقد حدث ذلك في مناسبتين تاريخيتين كبيرتين، فالكفار المبربرين وضعوا أقدامهم على أعناق أتباع الرسول محمد، الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر المسيحي، والمغول في القرن الثالث عشر المسيحي، ولكن في كلتا الحالتين دخل الفاتحين في دين المفتوحين».

إســـلام التتـار (المغـوليـيــن)

قديمًا قطنت قبائل عدة يقال لها (التتر)، في تركستان (روسيا) ومنغـوليا (الصين)، وكان من رؤسائها (جنكيزخان، 1163م – 1227م) وقد كان رجلاً ذا كفاءات غير عادية، جمع ألفي مقاتل تحت قيادته وسار بهم من بلاد الصين حتى انتهى إلى إيران، هازا بفتوحاته أركان الدول جميعًا فيما بين البلدين. وعقب وفاته استمرت هذه القبائل تخطو قدمًا إلى الأمام، إلى أن ظهر حفيده (هولا كوخان) والذي نجح في القيام بما كان ينويه جده جنكيزخان من إبادة المملكة الإسلامية وتدميرها حتى أنّه دمر وخرب العاصمة بغداد، وقتل الخليفة العباسي (المستعصم بالله) شرّ قتلة، ذلك لأن الأمراء التتر كان قد بلغهم من خوارزم شاه الملك المسلم ما أثار غضبهم، فانبروا للإطاحة بالمملكة الإسلامية وتصفيتها.

وقد كانت هذه الكارثة من أفظع وقائع التاريخ الإسلامي، وقد بلغت مهابة التتر واستبدادهم في السيطرة على العالم الإسلامي لدرجة، أنه صار يقال: «إذا قيل لك إن التتر انهزموا، فلا تصدق».

ومما يلاحظ أن هذه المشكلة الخطرة والعويصة لم يكن لينبثق حلّها إن كان لها أن ستحل، إلا عن طريق الدعوة. فالغزاة التتر لمّا فرغوا من استنزاف دماء المسلمين بأقصى ما في وسعهم، غمرهم الهدوء، وخمدت نيران عواطفهم الثأرية. أخذوا ينظرون إلى دين رعيتهم بشيء من الاعتبار، وبدوا التفكير فيه بجدية وإمعان، ولما كانت ثمة مناسبات كثيرة كانت تجمع التتر بالمسلمين، فقد سيق إلى بيوت التتر عدد لا يحصى من سبايا المسلمين رجالاً ونساء وكانت هناك بواعث شتى تفرض التقاء التتري بالمسلم يوميًا في الشوارع، وفي الأسواق، وغيرهما من الأمكنة، كما أختلف بعض المسلمون أنفسهم إلى بلاط الأمراء التتر، وبمثل هذه الطرق المختلفة تمكن التتر من التعرف على الدين الإسلامي، والإلمام بتعاليمه ومحاسنه. وعلى إثر ذلك، طفقوا يعتنقون الإسلام، فأسلم أول من أسلم أمراؤهم وأشرافهم، ثم تبعهم عامة التتر، حتى دخل أغلبهم في الإسلام، وذلك ما جعل الذين كانوا أمس قد هدموا صرح الإسلام يصبحون الآن بناة صرحه من جديد، وقد كتب البروفيسور (ت. دبليو. أرنولد)، حين أورد هذا

الحادث الدعوي العظيم للتاريخ الإسلامي يقول: «إن الفاتحين قد اعتنقوا دين المفتوحين».

" The conquerors have accepted. The religion of the conquered."

وكتب البروفيسور (فيليب حتى)، حين ذكر هذا الحادث في كتابه (تاريخ العرب) يقول: «إن دين المسلمين قد حظي بالانتصار بينما كانت أسلحتهم باءت بالفشل».

" The religion of the Muslims had conquered where their arms had failed" (p.488).

الدعـــوة قـــوة لا ينضـب معينـها

إن الدعوة هي قوة لا تزال تتوفر لدى المؤمنين حتى ولو فقدوا أو سلبوا كل ما يملكونه، وثمة في بلاد أفريقية مثال رائع يؤكد ذلك، علاوة على ما فيه من دروس وعبر لمن أراد الاعتبار. وقد تصدّى البروفيسور (ت دبليو ارنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام)، لبيان كيف كان امتداد نفوذ الإسلام إلى قبائل البربر في الجزائر، وهذه القبائل كان أكثر الناس فيها ممن يدينون بالديانة الوثنية القديمة، كما كان فيهم عدد غير كثير من المتدينين بالمسيحية. وقد كانت قبائل البربر يسكنون في مناطق جبلية، ونظرًا لإحاطة الجبال بهم كانوا في حصن ومنعة من الهجمات الخارجية، ونتيجة لمزاجهم القبلي كانوا قد شربوا الاستبداد والحب الزائد للاستقلال الذاتي، فما زالوا يمنعون العناصر العربية من التسرب إليهم، لفترة زمنية طويلة، ولأجل ذلك كان هناك في طريق هديهم إلى الدين الإسلامي عقبات عدة، ولقد حاول رجال الصـــوفية التابعين لزاوية (الساقية الحمراء) المنتسبة إلى الطريقة القادرية، أن يضعوا هناك قواعد نشاط تبليغي منظم إلا أنهم لم يتمكنوا من إحراز النجاح في محاولاتهم تلك، وإنما الفضل يعود في تمهيد الطريق نحو نشر الدعوة بينهم يرجع إلى المسلمين الأندلسيين الذين كانــوا قد لجأوا إلى هذه الزاوية، بعد أن نُفوا عن بـــلاد اسبانيا عقب سقوط غرناطة في سنة 1492 ميلادية، ذلك إنّ شيخ الزاوية توسم فيهم الخير وأدرك أنهم أكفاء

مؤهلون لتحقيق الغاية، بالقيام بمهمة التبليغ الشاقة، تلك المهمة التي لم يكتب لجهود تلاميذه تحقيق نجاح فيها، وقبل إن يبعثهم لأداء هذه المهمة، خاطبهم بهذه الكلمات : « إن واجبنا، أن نحمل مشعل الإسلام، إلى تلك البقاع والأصقاع، التي ظلت محرومة من بركات الإسلام وحسناته، وإن هذه القبائل قد زادها شقاء وسوء حال أنها تفقد معاهد تقوم بتربية أبنائها على المبادئ الخلقية، جاهلين بكل ما يتعلق بالله، وما يتصل بالدين، فوددت أن استشير حماسكم الإيماني، وحميتكم الدينية، لكي تضطلعوا بانتشال هؤلاء الناس مما هم فيه من جهالة باعثة على الرثاء، فقوموا وألهبوا شعلة شعورهم الإيماني، التي أوشكت أن تخبو، ولتوقدوا شرارتها الكامنة تحت الرماد من جديد وطهروهم من أدران المسيحية الفاسدة، التي كانوا عليها من قبل والتي لم تزل عالقة بهم إلى الآن، وعلموهم بما يشتمل عليه ديننا القيم من حقائق نيرة ومفاهيم سامية واخبروهم بأن الإسلام ــ على العكس من الديانة المسيحية ــ دين الطهارة وان الله وفق تعاليم سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ المرسل إلينا بهذا الدين لا يحب ولا يقبل شيئا غير طاهر. وهنا لا يسعني إلا أن اعترف بصراحة، أن في طريقكم هذا ــ الذي أنتم سالكوه ــ صعوبات وعوائق كثيرة إلا إني لست بقانط من فضل الله ولطفه بل إني على أكمل يقين إن حميتكم الإسلامية الغالبة، وحماسكم الإيماني الجبار، سيتغلبان على كل العقبات والصعوبات في نهاية الأمر. فانطلقوا يا أفلاذ كبدي! إلى هذه الأمة البائسة الشقية، المتورطة في أوحال الجهل والكفر والوثنية، وعودوا بها إلى سبيل ربها وهدي رسوله، وبلغوها رسالة النجاة والفلاح، صحبكم الله ورعاكم فانطلق هؤلاء المبلغون يرتدون ثيابا وسخة بالية، آخذين بأيديهم العصي متخذين هيئة جماعات متألفة من خمسة أو ستة رجال، وانتشروا إلى مختلف الجهات والأطراف واختاروا كهوفًا ومغارات بين الهضاب، من مناطق غير مسكونة واتخذوا هناك بين الصخور الجنادل زوايا ومعابد وبعد زمن قليل اشتهروا في القبائل لورعهم وتنسكهم، فبدأت هذه القبائل تختلف إليهم، وبما كان عندهم من معرفة بالطب، والحرف اليدوية وما إلى ذلك من مهارات أخرى ذات فوائد كبيرة للحياة الاجتماعية، فذاع صيتهم وصار لهم نفوذ عظيم في نفوس قبائل البربر حتى تحولت كل زاوية من زواياهم إلى مركز إسلامي للتعليم والدعوة وقد اجتمع حول أولئك الغرباء كثير من الناس لينهلوا مما عندهم من

ثروة علمية وفضائل أخرى، وأنّ هؤلاء الطلبة هم الذين أصبحوا فيما بعد كوادر، اضطلعت بنشر رسالة الإسلام بين بني جلدتهم، حتى انتشر الإسلام بين جميع قبائل البربر، وتغلغل في كل منطقة من مناطق الجزائر »[1].

الإســـــلام في جزر الملايــو

يبلغ عدد المسلمين في جنوب شرقي آسيا إلى مائتي (200) مليون مسلم، وفي اندونيسيا وحدها، يبلغ عددهم مائة وعشرين (120) مليون مسلم، ومن غير شك أن هذا العـــدد يفوق أيًا من الأقطار الإســلامية، وأكثر النواحي روعة وتأثيرًا في ضخامة عدد المسلمين في هذه المناطق، هو كيفية دخولهم في الإسلام الذي لم يكن إلا عن طريق عمل التبليغ الخالص، فإن المسلمين لم يشنوا أبدًا أي هجوم عسكري على هذه المناطق. وقد تم ظهور الإسلام في هذه المناطق بصورة واضحة في القرن الثالث عشر (13) مسيحي، وهذا ذات القرن الذي طرأ فيه التدهور والانحلال على قوة المسلمين السياسية. كتب البروفيسـور. (ت، دبليو، ارنولد) يقول: «إن تاريخ جزر الملايو للقرون الستة الماضية لينطوي على فصل رائع جدًّا للتاريخ الإسلامي، حيث كان الإسلام قد انتشر عن طريق جهود التبليغ ليس إلّا»[2]. إن القرن الثالث عشر (13)، هو القرن الذي سقطت فيه الدولة الإسلامية في اسبانيا، وهذا القرن هو الذي كان الإسلام فيه يشق طريقه إلى السيطرة الفكرية على جزر الملايو. وقد كتب الدكتور (كرا فورد) (Dr. Craw. Ford) مشيرًا إلى ذلك يقول: « إنه لمن غريب الصدف، أن الدين الإسلامي كان يمتد نفوذه إلى آسيا، في حين كان قد نفي عن البلاد الأوروبية ».

« It may be remarked as a singular co- incidence that the Mohamedan religion was extending itself thus in Asia at very time it was expelled from Europe».

(1) ت، دبليو ارنولد، الدعوة إلى الإسلام ص 128 - 129 .
(2) المصدر السابق ص/ 367.

وكتب البروفيسور ارنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) يقول: «.. غير أن السنين المتأخرة، أسفرت عن سقوط المملكة الإسلامية، وانحلال قوة الإسلام السياسية، إلى أقصى حد، ولكن فتوحاته الروحية، لم تزل مستمرة من دون أن يعوقها عائق. فعندما قام (المنغوليون) بالقضاء على بغداد في سنة 1258م، وأغرقوا مجد الخلافة العباسية في الدماء، وعندما قام (فرديناند) في سنة 1236م بإجلاء المسلمين عن قرطبة، ودفع سلطان غرناطة المسلم إلى الملك المسيحي الخراج، كان الإسلام قد بسط نفوذه إلى (سومطرة)، وكان يخطو بخطوات موفقة نحو الاستيلاء على جزر الملايو. ذلك لأنه لقد قُيِّض للإسلام أن يحرز بعض فتوحاته الروحية البالغة الروعة والمثيرة للإعجاب، على حين كان قد أحاط به الانحلال السياسيّ»[1].

إن أي شخص يدخل في تاريخ اندونيسيا، فكأنما هو يدخل في عالم مجهول تمامًا، إن الناس على العموم يظنون أن هناك قوة طلسميه (خارقة للعادة) هي التي كانت قد أدخلت سكان جنوب شرقي آسيا في الإسلام. نعم هناك قوة خارقة للعادة كانت تعمل وراء هذا المدّ الإسلامّي. ولكنها لم تكن أية قوة طلسميه بل إنما هي (قوة الإسلام الدعوية). ولا ريب أن القوة الدعوية الإسلامية، تنطوي تحتها إمكانات جبارة لأن تجدب الناس إليها، وتضطرهم إلى الدخول في الإسلام.

لقد دخل الإسلام في هذه المناطق عن طريق التجار، وإن ما يتصف به التاجر من سلوكيات هي نفسها سلوكيات الداعي، وخير الدعاة من يعامل المدعو بما يعامل به التاجر زبائنه، ومثل هذا الداعي لا يمكن أن تبوء مهمته بالفشل. وقد كتب (إليكس دي توكوفيل) (Alex de Toqueville): «إن التجارة تقتلع جذور عواطف العنف والتعسف، وهي تستحب القصد والتراضي المتبادل، والتاجر يتحرز بشدة من أن يُعرض عن زبائنه وهو في حالة الغضب، إن التاجر يكون صبورًا أيما صبر، والتجارة هي التي تخلق في صاحبها مثل هذه الصفات النبيلة، لذلك قال بعض المفكرين: «إن الله يجعل من التجارة وسيلة للتبليغ عنه»

« God is making commerce his missionary »

(1) المصدر السابق ص/ 2.

الدعوة الإسلامية في القرن العشرين

إن القرن العشرين ـــ من ناحية ـــ هو قرن الحركات الإسلامية، ففي هذا القرن، قام المسلمون بإطلاق وإثارة حركات عظيمة الشأن، لا يأتي عليها الحصر، وهذه كلها كانت قد غلب عليها الطابع السياسي والثوري، مع تفاوت درجة الغلبة بين واحدة وأخرى، وقد بلغ ـــ من حيث الكمية ـــ ما تمتعت به هذه الحركات من عدد ضخم من الأتباع والأنصار ورصيد هائل من الوسائل والإمكانات درجة كافية لتمكينها من الظفر بالنجاح، ولكن هذه الحركات لم تلبث ـــ رغم امتداد نفوذها وانتشارها بين قطاعات شاسعة من الناس ـــ أن باءت بالفشل والإخفاق، ولم تنل الأمة منها أية فائدة إيجابية من أي نوع. إن هذه الحركات قد هبّت كالزوابع الهوجاء، وتلاشت في الفضاء كأنها فقاقيع.

إن هذا الوضع المأساوي للمسلمين في القرن العشرين (20)، كان في الناحية السياسية، أما من الناحية الدينية (الدعوية)، فإننا نرى في هذا القرن بعينه أن قوة الإسلام الدعوية، مازالت تجتذب وتسحر كتلاً من السكان في كل قطر من أقطار العالم غير أن القادة والزعماء الإسلاميين، لم يوجهوا شيئًا يذكر من جهودهم وطاقاتهم صوب الميدان المتصل بالدعوة الإسلامية ولكن الإسلام بفضل ما يتمتع به من قوة وجاذبية، لم يزل لديه القدرة على التمكن من قلوب العالمين.

والأشخاص الذين وُفقوا إلى اعتناق الإسلام، خلال المائة (100) سنة الماضية، في شتى أرجاء العالم، يتجاوز عددهم الملايين. وفيما يلي نعرض قائمة نموذجية، تتضمن أسماء العديد منهم، وقد أثبتنا مقابل الأسماء تاريخ (سنة) دخولهم في الإسلام. وهذه القائمة ستؤدي إلى تقدير كيفية استمرارية اهتداء الناس إلى الإسلام في كل دور من أدوار القرن الماضي.

1- prof. haroon Mustafa Leon England 1822

2- Mohammed Alexander Russel Webb U.S.A 1890

3- Dr Nishikanta Chattopadhya Hyderabad 1904

4- Lord Headily al-farooq England 1913

5- Dr William Burchell B. pickaed England 1922

6- Sir Abdullah Archibald Hamilton England 1923

7- Mohammad Marmaduke pickthall England 1935

8- Mohammad Leopold Asad Austria 1926

9- Dr Abdul karim Germanus Hungary 1940

10- Dr Ali Mohammad Mori Japan 1947

11- Dr Ali Selman Benoist France 1955

12- Dr R.L. Mellema Holland 1955

13- Ibrahim khalil Phillips Egypt 1960

14- prof. A.H.B Hewett U.S.A 1966

15- Umar bongo (president، Gabon) Gabon 1973

16- Dr Roger Garoudy France 1982

17- Moose fondi Tanzanian 1986

18- Abdullah Adiar Madras 1987

كل هؤلاء من الذين قاموا بدراسة الإسلام انطلاقًا من رغبة ذاتية أو بجهود شخصية، أسفرت هذه الدراسة عن تأثرهم العميق بتعاليم الإسلام لدرجة أنهم لم يلبثوا إن اعتنقوه. وقد تعلم عديد منهم اللغة العربية حتى يتمكنوا من فهم الإسلام بصورة مباشرة، إن القرن العشرين (20) بالنسبة للمسلمين كجماعة قومية قرن الخيبة والخسران ولكن الإسلام في هذا القرن نفسه، كان ولا يزال يخطو بخطًى حثيثة نحو الأمام.

كلمة أخيرة

إن التاريخ الإسلامي بأكمله، يؤكد على أن أكبر ما يملكه الإسلام من قوة، هو (الدعوة إلى الإسلام) إن الإسلام يطابق الفطرة الإنسانية مطابقة تامة، وإنه لو عرض على الإنسان في صورته الأصلية، فلا يلبث أن ينفذ إلى قرارة نفسه، ويتمكن في صميم قلبه، وهو يجعل المرء مضطرًا إلى أن يعترف بأحقيته، والحقيقة هي أنّ الإسلام في ذاته يحمل قوة تسخيريه ذاتية لدرجة أنه يضطر الناس إلى التأثر والإعجاب به.

ولكن هذه القوة لا تعمل عملها إلا إذا أزيلت كل العراقيل النفسية بين الإسلام ومخاطبيه. وقد كان المسلمون في القرون الأولى يدركون هذا السرّ، إذ تمسكوا بمبدأ التسامح بصورة عامة حيثما حلوا من البلاد والأمم فاتحين، واعترفوا لكل واحد بالحرية الكاملة فيما يتعلّق بدينه، وكانوا يعلمون أنهم لو فتحوا صراعًا طائفيًا مع هذه الشعوب، أو بادروا الناس بالاضطهاد والقهر في أمر دينهم، فلتأخذنهم الحمية بالعناد والتعنت، مما يقودهم إلى إنكار أمر غير قابل للإنكار. وقد اعترف المؤرخ الانجليزي الشهير، (هنري توماس بكل) (1821م -1862م) للمسلمين الأوائل بهذه الحكمة والتدبّر بكلمات مريحة، حين قال: « إن الدعاة الإسلاميين لعلى جانب عظيم من الحكمة والرؤية ».

«The Mohammedan missionaries are very judicious » p. (409).

وفي كتاب (الدعوة إلى الإسلام) للبروفيسور أرنولد، توسع كاتبه غاية التوسع في بيان أن المسلمين في القرون الأولى قد التزموا في كل الأماكن والبلاد، بمبدأ التسامح الديني أشدّ التزام، بالرغم من امتلاكهم أزمَّة السلطة السياسية لم يتصدوا قط لإثارة الخلافات الدينية مع الشعوب غير المسلمة، وإن هذا هو السبب الأكبر في أن جزءًا كبيرًا من المعمورة في العصر القديم انضوى تحت الدّين الإسلامي. كذلك اليوم يمكن أن تبرز هذه القوة الدعوية للإسلام، بكل ما تنطوي عليه من إمكانات تسخيريه، ولكن ذلك منوط بأن يسبق المسلمون المعاصرون إلى

القضاء على جميع تلك الصراعات القومية التي هم فتحوها مع جيرانهم من غير المسلمين في كل بقعة من بقاع العالم، إن هذه الصراعات القوميـــــة والتي أطلق عليـــــــــها (**الجهاد**) خطأً، لأكبر عائق في سبيل بروز القوة الدّعوية للإسلام، ويوم يتم القضاء على تلكم الصراعات، سيأخذ يومئذ الفيضان الدعوي للإسلام في التدفق، وسيبقى يتدفق إلى منتهاه.

إن لكل مجموعة بشرية نظامين (العقائد، السلطة) إنّ المسلمين المعاصرين تخلّفوا اليوم عمّن دونهم من الأمم والشعوب بالنسبة لنظام السلطة، ولكنهم مازالوا أقوى من شعوب العالم حتى اليوم بالنسبة لنظام العقائد. إلا أن القادة الإسلاميين في سائر أنحاء العالم، مشغولون في صدام مع الشعوب الأخرى في الميدان المتصل بنظام السلطة حيث لا ولن يعود عليهم بشيء سوى الهزيمة والنكسة والدماء، ولو أنهم تخلوا عن هذا الصدام العقيم، وجعلوا من الشعوب الأخرى مخاطبين في الميدان بنظام العقائد، فسرعان ما يدركون أن تاريخهم الراهن المليء بالنكسات والهزائم، قد تحول مساره وتغيّر اتجه.

فالنهوض، النهوض بالإسلام كقوة فكرية، فإنّ ذلك مما يُسفر فيما بعد عن اتخاذه الاعتبار الغالب على الدنيا من الناحية الفكرية، وبالتالي من كل النواحي الأخرى كذلك.

الدّعوة الإسلاميّة في العصر الحديث

عندما ظهر الإسلام في أواخر القرن السادس (6) الميلادي كانت أكبرُ دولةِ آنذاك هي دولة مسيحية. وكانت هذه الدولة المسيحية تتألف من جزأين كبيرين: جزء غربي عاصمته روما، وجزء شرقي عاصمته القسطنطينية. وخلال مدة وجيزة تمكن المسلمون من قهر معظم أجزاء العالم المسيحي آنذاك. فغلبوا الجزء الشرقي غلبة كاملة تقريبًا، أما الجزُء الغربّي فاقتطعوا جزءًا منه، كذلك.

وجاءت الحروب الصليبية كردَة فعلٍ من المسيحيين الغربيين على هذه الهزيمة. فتوحدت الممالك المسيحية الأوروبية لاستعادة الأماكن المسيحية المقدسة وانقضت على المسلمين. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لقد عَّلق أحد الكتّاب الغربيين المعاصرين على هذا قائلا: «بعد التضحية بالملايين من البشر وما لا يُحصى من الكنوز لإنجاز هذه المهمة، وحين انتهى كل شيء، كانت (القدس) لا تزال في قبضة من يراهم الصليبيون كفارًا».

والعجيب أن الشيء الذي حدث للمسيحيين قبل ثمانية (8) قرون هو ذاتُه ما يِحْدُثُ الآن للمسلمين. فبالرغم من تضحيات طويلة الأمد لا تزال (القدس) في أيدي الذين هم أقل الناس حقًّا فيها.

إن الشعوب المسيحية قد أخفَقَتْ في الحروب الصليبية القديمة، ولكنها أحرزت الانتصار الكامل في حروبها الاستعمارية الحديثة. فخلال القرون القليلة الماضية أخضعت هذه الشعوب معظمَ أنحاءِ العالم الإسلامي وفرضت على المسلمين سيادتها السياسية والحضارية.

وكان رَدُّ فعلِ المسلمين أن شنوا حربًا شعواء على سيادة الشعوب الغربية في كل أنحاء العالم الإسلامي. ولكن بالرغم من قرنين من الحروب والصدام لا تزال سيطرة الشعوب الغربية قائمة بصورة أو أخرى، ولا تزال (القدس) في أيدي أعداء الإسلام والمسلمين.

إن السبب في هذا الفشل، رغم الجهود والتضحيات الجسام، هو أن الأمة الإسلامية أغفلت واجب الدعوة إلى الله، الذي هو أهم فرض ديني ملقى على عاتق المسلمين. وهذا هو الواجب الذي بأدائه يستحق المسلمون نصرة الله، وبدونه يُخذلون. إن كل جهودهم وتضحياتهم ستضيع مَا لَمْ يقوموا بواجب الدعوة إلى الله.

ما هي الدعوةُ الإسلاميّة؟

نشاهد في هذا الزمان ظاهرة عجيبة، هي أن المسلمين يَسْعَوْن لأجل أهداف وطنية وقومية، ويطلقون على هذا العمل وصف (الدعوة الإسلامية). ومما لا شك فيه أنه لا يجوز استعمال هذه الكلمة لوصف مثل هذه الجهود. إن الدعوة إلى الله، هي تبليغ دين الله الحق إلى أممٍ وشعوب لم يَتَسَنَّ لها الوصول إلى الهداية الإلهية. إن الدعوة هي وراثةُ الأنبياء الّتي كلّف بها المسلمون بعد ختم النُّبوّة. إن استعمال هذه الكلمة لأغراضٍ قومية يستوجب الغضب الإلهي، ناهيك أن يَجْلِبَ النصرة الإلهية الموعودة.

لقد جعل الله خير الأمة الإسلامية في الدنيا والآخرة مقرونًا بالقيام بأداء واجب الدعوة إلى الله. ويكمن سر عصمة الأمة من الناس في الدنيا في قيامها بالدعوة إلى الله قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[1] . ذلك كله من جهة، ومن جهة أخرى فأنّ قيام الأمة بواجب الدعوة إلى الله يؤهل المسلمين للفوز بمرتبة (الشهادة) في الآخرة، وهذه هي مرتبة (أصحاب الأعراف) قال تعالى: ﴿**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ**﴾(2). وسينعم الله تعالى على أصحاب الدعوة إلى الحق بهذه المكانة المرموقة في الجنة.

إن الدعوة إلى الله ليست عملاً سهلاً يسيرًا، بل إنها إعادة تاريخ رســـــول الله صلى الله عليه وسلم ــ وأصحابه الكرام على وجه الأرض من جديد. إنها

(1) المائدة: 67.
(2) الأعراف: 46.

نيابة عن الله بين يدي خلقه. إنها التغني بحمد الله وكبريائه وحده على هذه البسيطة: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1]، والدعوة إلى الله تمثيل الحقيقة الغيبية كحقيقة مشهودة أمام الناس. إنها تأدية مهمة نبوية على مستوى بشريّ غير نبويّ. أما حينما لا يُدرك الإنســـان (المسلم) حقيقة هذه الدعوة فإنه سينشط باسم (الدعوة) لأهداف لا علاقة لها بالدعوة.

تغييـــــر المنـــاخ العالـــمي

إن أول ما يجب أن يعرفه الداعي، قبل أن ينشط في دعوته، هو حقيقة الوضع الراهن في العالم الذي يعيشه. وخلاصة القول في هذا الشأن هو أن الدعوة الإسلامية، بالنسبة لأسلافنا، كانت تتمثل في القضاء على (الشرك). أما بالنسبة لنا فقد أصبحت الدعوة الإسلامية هي القضاء على (الإلحاد). لقد قضى أسلافنا على عصر الشرك وافتتحوا عصر التوحيد فكان ذلك ميلاد تاريخ وعصر جديدين في العالم استمرا ألف سنة. وظل عصر التوحيد يحكم العالم ويسيطر على عقول الناس ويستأثر باهتمامهم طوال هذه المدة حتى بدأ عصر العلم الغربي الحديث يظهر منذ القرن السادس عشر الميلادي فكان ذلك إيذانا ببدء عصر جديد، وبدأ تاريخ جديد للعالم وصل إلى درجة الكمال في القرن العشرين. واستدار الزمان كهيئته السابقة، وأصبح (الإلحاد) غالبا في كافة ميادين الفكر والعمل مثلما كان الشرك غالبًا على كافة شعب الحياة الإنسانية قبل ظهور الإسلام، ووصل الأمر إلى أن (الدين) نفسه أصبح الآن ذيلاً للفكر الإلحادي، وليست له مكانة مستقلة بالذات. وتوضيحًا لهذا الأمر أذكر هنا واقعة ظريفة، تُبين مكانة الدّين في هذا العصر، ذكرها المفكر الألماني شُومَياخَرْ:

«سافرت في سنة ألف وتسعمائة وثماني وستين (1968م) إلى مدينة لينينغراد وذات يوم كنت أنظر في خريطة سياحية لأعرف أين كنت ولكن لم أتمكن من حسن الاطلاع. فقد كانت عيني تقع على كنائس كبيرة مختلفة حولي ولم أجد

(1) يوسف: 108.

لها ذكرا في الخريطة، وأخيرًا ساعدني مترجم قائلا: إننا لا نُظهر الكنائس على (الخرائط)[1]، إن هذه صورة مصغرة للوضع الذي نشاهده في هذا الزمان. إن الإنسان الحديث قد أبعد الذات الإلهية عن جميع خرائطه العلمية والفكرية، وقد تم في هذا العصر تدوين علوم الجغرافيا والتاريخ والفيزياء والنبات والحيوان والفلك وغيرها من العلوم، بمنتهى التفصيل والدقة، ولكن هذه العلوم تتجاهل ذكر (الله). إن الإنسان الذي آتاه الله البصيرة والعقل يشاهد آيات الله في كل مكان من هذا الكون. ولكن الذات الإلهية مجهولة تمامًا لدى العلوم الحديثة المدونة، ولا يجد دارس هذه العلوم ذكر الله في المكتبة الضخمة التي أوجدها خبراء هذه العلوم الحديثة.

إن التصدي لأمر الدعوة في ظل هذه الحالة يتطلب تسجيل اسم (الله) من جديد على خريطة الفكر العالمي. وهذا يتطلب تفجير ثورة فكرية تمكن الإنسان من أن يفكر بالمصطلحات الإلهية ويصبغ فكرتـــــــــه بصبغة دينية. وبعد قيام هذه الثورة الفكرية فحسب يمكن لإنسان العصر الحديث أن يفهم معاني التوحيد والآخرة ويتقبلها كحقائق.

لقد تصدى أسلافنا بنجاح لتحطيم سيطرة الشرك في عهدهم وأقاموا على أنقاضه سيطرة التوحيد. ويجب علينا أن نقوم لتمزيق سيطرة الإلحاد ولصياغة الفكر الإنساني على شاكلة التوحيد من جديد. إن الظن بان مسئولية الدعوة مهمة تقل عن هذا المستوى إنما هو عدم إدراك هذه المسئولية على وجهها الكامل. والدعوة الناقصة التي لا تدرك هذا المستوى لا تُجدي عند الله ولا تنفع عند البشر.

العــلاقة بين الــداعـي والمــدعـو

وهناك قضية أخرى هامة، وهي إعادة العلاقة بين (الداعي) و(المدعو) بين المسلمين وغير المسلمين. إن المسلمين كأفراد ينتمون إلى الأمة الإسلامية، وهم (دعاة) إلى الدين الحق، وما عداهم من الأمم (مدعوة) إليه، وأكبر خطأ ارتكبه المسلمون في هذا الزمان هو أنهم جعلوا الأمم الأخرى خصومًا وأعداء

(1) E.F. Schumacher A guide for the perplexed London 1981 p.9.

في المجالات السياسية والقومية والاقتصادية، مع أن شعار (الداعي) في القرآن الكريم هو: ﴿**لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾ [1]. وفي هذه الحالة تعتبر المظاهرات والمطالبات الاحتجاجية طلبًا للحقوق نفيًا لمسئوليتهم إزاء الدعوة.

فإذا كنا نريد أن نتبوأ مكانة (الشهداء) عند الله فليس لنا إلا أن نضحي بمطالبنا، ولو كانت مبنية على العدل في ظاهر الأمر، ويجب علينا أن نُنهي الصراع من طرف واحد، لكي تقوم علاقة الدعوة من جديد بين المسلمين وغير المسلمين. وبعد ذلك فقط يُمكن أن يتوفر المناخ الذي يَسمح بعرض دعوة التوحيد والآخرة أمام غير المسلمين لكي ينظروا فيها بترو وجدية.

أن صلح الحديبية (سنة 6 هـ) يقدم مثالاً واضحًا، حيث قبل المسلمون كافة المطالب الاقتصادية والقومية لأعداء الإسلام حين وقع النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ على وثيقة التنازل عن الحقوق. ولم يكد المسلمون يعودون بعد الصلح حتى نزلت فيهم الآية: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا**﴾[2]، لماذا وصف الله هذه المعاهدة بأنها (فَتْحًا مُبِينًا) مع كونها هزيمة وخسارة في ظاهر الأمر؟

والجواب هو أن هذه المعاهدة غيرت مجال الصراع بين المسلمين والكفار. فبعد هذه المعاهدة انتقل الصراع بين الإسلام وغير المسلمين إلى ميدان جديد كان الإسلام فيه في موقف أفضل. وكان الصراع حتى هذا الوقت بين المسلمين والكفار يدور في ميادين القتال، بسبب عدوان أهل الكفر الذين كانوا يتمتعون بعتاد أكثر ووسائل حربية أفضل. وهذا هو السبب في أن الأمر لم يُحسم لصالح المسلمين بالرغم من الغزوات والسرايا الكثيرة التي وقعت بعد الهجرة والآن مقابل الاعتراف بمطالب الكفار القومية حصل المسلمون على عهد منهم بالهدنة الحربية لمدة عشر (10) سنين.

إننا نحتاج إلى (حديبية) أخرى في هذا العصـر. إن الحروب المادية الدنيوية تشغل المسلمين في كلّ مكان. وبسبب غفلتهم، قد تخلّف المسلمون كثيرا عن الشعوب الأخرى في الميادين المادية. ونتج عن هذا أن الشعوب الأخرى تهزمهم على كل جبهة. والذي نحتاج إليه الآن هو التضحية من جانب واحد

(1) الأنعام: من الآية 90.
(2) الفتح.

لتحويل الصراع عن الجبهات المادية وتوجيه الصراع إلى جبهة الفكر. وقد تحقق هذا الأمر في قديم الزمان بانتهاء الحرب من جانب واحد. أما الآن فسوف يتحقق هذا التحول بانتهاء حرب الحقوق القومية من جانب واحد، كذلك.

وكان نشاط الدعوة الإسلامية متوقفًا بسبب استمرار حالة الحرب والاقتتال. وما أن هدأ ميدان الحرب حتى نشط ميدان الدعوة بكل قوة. وكان الإسلام أقل تأثير في أيام الحرب. أمّا حين انتقل الصراع إلى ميدان الدعوة السلمية فلم يكن لدى الشرك ما يواجه به سلاح التوحيد، وكانت النتيجة أن دخلت القبائل العربية إلى حظيرة الإسلام (أفواجا)، فانهارت قوى الكفر ولم يمض على الهدنة سنتان حتى فُتحت مكة.

إن التضحية بالمصالح القومية من أصعب الأمور، ولكن في هذه (الخسارة) يكمن سر الفوز والغلبة. وما أن يقدم المسلمون على هذا حتى يبدأ عصر انتصار الإسلام. إن المسلمين يملكون الأسلحة (التقليدية) في ميدان الحرب بينما يملك أعداؤهم الأسلحة (الحديثة). أمّا في ميدان الفكر فلدى المسلمين حقيقة إلهية، ولدى الشعوب الأخرى التعصّب ليس إلّا، ولا يصمد التعصب أمام الحقيقة إلا قليلاً.

إعداد المكتبة الإسلامية

قال الله تعالى **في القرآن الكريم أنه جعل القلم وسيلة لتعليم الإنسان: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾**[1]، **وهذا يدلّ** على أهمية الكلمة المكتوبة في ميدان الدعوة الإسلامية. والمكتبة الإسلامية لا تعني مجرّد إعداد بعض الكتب باسم (الإسلام) وتوزيعها بمختلف اللغات...إن قضية المكتبة الإسلامية ليست سهلة هيِّنة، إنها تعني محاولة بشرية لشرح حقائق الوحي الإلهّي الأبديّة بلغة العصر. لقد أنزل الله كتابه الأخير باللغة العربية. ولكن يجب تبلغيه إلى غير العرب وبلغاتهم، **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ**

(1) العلق: 4.

﴿يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]، وقضية (عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) ليست وقتية، بل هي قضية أبدية مستمرة استمرار البشر على وجه البسيطة، ويدخل في إطارها التعليم باللغات الأخرى. والإنسان هو الذي سيؤدي هذه الفريضة. إذا كان الله تعالى قد علّم بالقلم ـــ العربية ـــ فعلينا نحن أن نقوم بتأدية فريضة التعليم بالقلم باللغات الأخرى. لقد أقلع الشاعر العربي (لبيد) عن الشعر بعد إسلامه فسألوه عن السبب، فأجاب قائلا: «أبَعْدَ القرآن؟». وهذا يدل على أن القرآن كان قد غلب على عقول البشر في ذلك العصر. واليوم نحن في حاجة إلى مكتبة إسلامية تغلبُ على عقول البشر المعاصرين. وتبدو هذه المهمة المستحيلة في ظاهر الأمر ولكن الله تعالى بنفسه قد مكّن لنا هذا المستحيل. فقد فجر الله ثورة جديدة في تاريخ البشرية وهذه الثورة هي الثورة العلمية التي أتاحت للإنسان إمكانيات استدلالية جديدة لم تكن متاحة له من قبل. ويمكن القول الآن، بدون مبالغة، أنه أصبح متاحًا لنا أن نقدّم أمام المخاطبين الاستدلال ألإعجازي الذي لم يكن متاحًا من قبل إلا للأنبياء والرسل.

إن الكون كله معجزة إلهية عظيمة الشأن. والكون بوجوده كله دليل معجز على ذات الخالق وصفاته. وكانت هذه المعجزة الإلهية مجهولة إلى حد كبير في الأزمنة القديمة. ولعله لهذا السبب أعطى الله تعالى معجزات خارقة للأنبياء والرسل. ولكن نبي الإسلام لم يأتِ بتلك الخوارق بالرغم من مطالبة المخاطبين المستمرة. وبدلًا من الإتيان بالخوارق، قيل لهم أن يتفكروا في (آيات) الله الكونية، فهي تكفيهم للإيمان بالله الخالق. بما أن القرآن الكريم نزل في بدء عصر العلم، لذلك اكتفى القرآن الكريم بالإشارة إلى آيات الكون، وكان مخاطب القرآن في المنظار المستقبلي هو إنسان عصر العلم. وإنسان عصر العلم لا يحتاج إلى المعجزات الخوارق للإيمان بالله وكتابه.

ولم يكن المطلوب من المعجزة ـــ في قديم الزمان ـــ هو القيام بحركة أو فعل مدُهش، بل كان الغرض المطلوب هو التصديق النهائيّ على دعوة الحق أمام المخاطب المشاهد. والدور الذي كانت المعجزات الخوارق تقوم به في سالف الزمان ـــ لتقطع على المخاطب باب رفض الدعوة ـــ يُمكن للعلم الحديث

(1) إبراهيم: 4

اليوم أن يقوم بالدور نفسه بكشف أسرار الكون والطبيعة لإقناع المخاطب بصدق الرسالة الإلهية. والجدير بالذكر أن القرآن الكريم يُطلق كلمة واحدة مشتركة هي الآية على كل معجزات الرسل ورموز الكون والطبيعة.

إن الدعـــوة إلى دين الله مطلوبة حتى مرحلة (إتمام الحجة) قال الله تعالى: ﴿**رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾[1] وجاءت المعجزة لإتمام الحُجة على أيدي الأنبياء في قديم الزمان. والمطلوب من حملة الرسالة الإلهية اليوم أن يعرضوا الدعوة أمام شعوب الأرض حتى مرحلة (إتمام الحجة). ولكن كيف يمكنهم إقامة الحجة وتحقيق هذا الهدف في هذا العصر الذي انقطع فيه مجيء الأنبياء وبالتالي لن تقع الآن معجزات خارقة لإقناع المخاطبين وإتمام الحجة عليهم كما حصل في السابق؟

إن الثورة العلمية الحديثة تحمل الرَد على هذا التساؤل. فلقد أمكن بواسطة الثورة العلمية الحديثة إثبات تعاليم الدين الحنيف بذات المعايير التي يؤمن ويسلم بها إنسان العصر الحديث. إن أهم جانب لهذا الأمر يتعلق بمنهجية الاستدلال. إن العلم الحـديث نتيجة لبحـــوثه في مختلف ميادين الطبيعـة، قــد سلّم بأن (الاستدلال الاستنباطي) جائز ومقبول بنفس درجة الاستــدلال المباشـــر و(الاستدلال الاستنباطي)، كما نعلم، هو أسلوب القرآن الكريم، وهذا يعني أن العلم الحديث البشري يسلم بمنهج الاستدلال القرآني ـــ القائم على الاستنباط ـــ تمامًا كما يسلم بمنهجية الاستدلال المباشر الذي صاغه لنفسه.

وقد نتج عن العلم الحديث أن الشيء الذي كان لا يعدو أن يكون معلومة خارجية أصبح هو ذاته اكتشافًا بشريًا. لقد توصل العلم الحديث إلى أن الإنسان يحتاج إلى الوحـي السماوي للهداية الشاملة. كما اكتشف العلم الحديث أنّ هناك نظامًا جُزافيًّا داخل الكون إلى جانب كل الأنظمة والقوانين الدقيقة التي تُقيدُ حركة الكون وتنظيمها. وهذا شاهد في حد ذاته على الله تعالى وعلى وجوب وجوده لإدارة الكون وتسييره. لقد اكتشف العلم الحديث وجـود عالم آخـــر مُوازٍ لهذا العالم المادي الذي نعيشه، وقد سماه بالا عالم أو (العالم المضاد) (Anti world) وهذا يؤكد على وجود (عالم الآخرة).

---

(1) النساء: 165

إن ظهور النور بالتقاء المجال المغناطيسي والحركة هو تمامًا كمعجزة اليد المضيئة الباهرة بعد إخراجها من الإبط. إن مرور السفن والحركة عبر المحيطات الهادرة والطائرات عبر الفضاء هو كانفلاق البحر للسماح لمجموعة من البشر بالعبور. إن ظهور الماكينات المتحركة بالمادة هو كتحول العصا إلى أفعى تدبُّ.

الحقيقة هي أن المعجزات التي أعطيت للأنبياء في قديم الزمان لا تزال موجودة بكثرة في كون الله الفسيح. ولكن بما أن إنسان العصور القديمة كان لا يزال يجهلُ تلك الحقائق الكونية فلذلك أعطى الله أنبياءه معجزات خارقة. إن الأبحاث العلمية قد فتحت الباب على مصراعيْه على هذه الحقائق الكونية حتى أضحت كافية لإقناع الإنسان ودفعه إلى الإيمان بالله والوحي السماويّ.

إن الثورة العلمية هي ظهور معجزة الله، فهي تؤكّد على كلام الله على مستوى المعجزات. إننا سنجمع الدعوة والمعجزة على صعيدٍ واحد لو تمكنّا من الاطلاع بعمق على الحقائق الكونية، التي كشفت الثورة العلمية النقاب عنها، واستخدمناها لأجل الدعوة إلى الحق. ولا يراودني أدنى شك في أنها تمكّنا تمكُّناً حقيقيّا، من عرض دين الله مقرونًا بالأدلة العلميّة، فسنشاهد من جديد (لبيد) العصر يقول: (أبْعَدَ هذا)! إن الاستدلال العلميّ هو البديلُ العصريُّ للاستدلال المُعجز. إن العلم الحديث قد أثبت كل التعاليم الإسلامية، أو على الأقل قد جعلها (مفهومة). وقد ألّفتُ كتابًا حول هذا الموضوع، بعد دراسةٍ دامت عشر (10) سنوات، وقد نُشر هذا الكتاب سنة ألف وتسعمائة وأربع وستين بعنوان (1964م) (علم كلام جديد) ثم تُرجم إلى العربيـة بعنوان (الإسلام يتحدى) سنة سبعين (1970م). ولكن مسيرة العلم قد تقدمت كثيرا خلال السنوات العشرين الماضية، ولذلك أطمح إلى التفرغ لإعداد كتاب أجمع وأوعى، وسيكون عنوانه " **God Arises** " (الله يتجلى)، والله الموفق.

الإمكانات الملائمة

إن الدعوة إلى دين الله من أصعب المهام. ولكن الله تعالى برحمته الواسعة سهَّلها لنا كثيرا. وقد أجرى الله تعالى تحولات لهذا الغرض في مختلف عصور التاريخ البشري ليفتح لنا أبوابا جديدة. وقد وصلت هذه التحولات إلى مداها

في العصر الحديث، فأصبح ممكنا أن نُؤدّي بِمِدَادِ القلم تلك الفريضة التي كان الناسُ في سالف الأزمنة يودّونها بالدم. وهناك ثلاث جوانب لهذا التيسير الذي أشار إليه القرآن الكريم:

1ــ لقد علّم القرآنُ أهل الإيمان هذا الدعــاء: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾[1]، ولو أردنا أن نردَّد هذا الدعاء بكلمات أخرى لقلنا: ربَّنا مكَّنّا من جوّ الحريّة للقيام بدعوة التوحيد التي كان الذين من قبلنا يؤدونها في ظل حصار الفكر والرأي. وكان الداعي إلى التوحيد في قديم الزمان يرجم بالأحجار، وكان يلقى به في النار، وكان جسده يُقسم إلى نصفين بالمِنشار. والسبب في ذلك هو أن الحكم في الماضي كان قائمًا على الشرك حيث كان الحكام يدّعون أنهم نواب عن آلهة أو قوى غيبية اخترعوها. وما أن يقوم أحد لرفض معتقد الشرك حتى يشعر الملوك أنه يهدد ويقضي على الأساس النظري لبقائهم حكّاما. والثورة الفكريّةُ التي فجّرها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ــ حطَّمت هيمنةَ الشرك الاجتماعيّة وجعلت منه عقيدةً شخصية للمؤمن بها، فانفصل الشرك عن مؤسسة الحكم السياسية. وبهذا انتهى عصرُ الشرك المُعرقل لدعوة التوحيد. ولهذا أمر القرآن الكريم بالقتال لإزالة فتنة الشرك الجارح لإنهائها قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2]، ونتج عن قضاء الإسلام على عبادة الأوهَام وتقديس البشر أن اهتزّت أسس الملكيّة الوراثية.

وأدّى هذا إلى بدء عصر جديد في تاريـخ البشرية انتهى في آخر الأمــر إلى الظــهور في صورة (الجمهورية) و(الديمقراطية) في أوربّا، وأصبح المبدأ الرائج هو الحكم الشعبيّ بدلا من الحكم الفرديّ الاستبداديّ، وأصبح حق حرية الرأي من الحقوق المقدّسة لكل فرد من أفراد المجتمع. إن هذه الثورة الفكرية العالمية فتحت الباب للدعاةِ إلى الحق ليعلنوا رسالة الحقّ في سائر أرجاء العالم دونما خوف أو عوائق.

---

(1) البقرة: من الآية286 .
(2) الأنفال: 39.

2ــ قال الله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمَ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[1]، إن هذه الآية القرآنيّة تُشير إلى الثورة التي نسميها اليوم بالثورة العلمية الحديثة. إن الكون بكامل موجوداته دليل على الله. إنّ سائر المخلوقات شاهدة على صفات خالقها. وبكلمة أخرى، الكون هو دليل القرآن. ولكن هذا الدليل كان مجهولاً إلى حدَّ كبير قبل تفجرّ الثورة العلميّة. وكان لابدَّ لأجل اكتشاف هذه الحقائق أن يبحث عنها بعمقٍ وجديّة. ولكنّ عقيدة الشرك كانت تحول دون هذا البحث المتعمّق، فقد كان الإنسان المشرك ينظرُ إلى مظاهر الكون كمعبودات، وأنّي له أن يُخضِعَها للبحث والتحقيق.

إن ثورة التوحيد العامّة قد أزالت هذا العائق، فقُضي على فكرة تقديس مظاهر الكون بعد سيادة عقيدة التوحيد. وبدأ الآن البحث بحريّة في مظاهر الكون. واستمرّ هذا العمل لقرون على مدى العالم حتى وصل إلى أوربا حيثُ قُدَّر له أن يبرز نهائيًا في صورة ما يُسمّي الآن بالثورة العلميّة.

إن الحقائق التي تيسرت نتيجة البحث العلميّ أثبتت صدق دعوة القرآن الكريم بصورة قاطعة. وقد أوضحتُ هذه الأمور في كتابي السالف الذكـــــــــر (الإسلام يتحدّى)، فليراجعه من يرغب في تفاصيل هذا الأمر.

3ــ والجانب الثالث هو ما أشار إليه القرآن بقوله: ﴿**عَسىَ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**﴾[2]. إن (الحَمْدَ) هو آخر مراحل الاعتراف والقبول بشخصٍ ما. وهذا الوصف يدلّ على أن الله أراد أن يَسْبغ على آخر الأنبياء نعمةَ النُبوّة المسلَّم بها تاريخيّا. فهو النبيّ المحمودُ في الدنيا، كما انه صاحب «الشفاعة الكبرى» التي هي مقامه المحمود في الآخرة. إن كونَ النبيّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ نبيّا مسلَّمًا ومعترفًا به من الناحية التاريخيّة هو مقامُه المحمودُ في هذه الدنيا.

لقد بعث الله رُسله وأنبياءه في كلّ العصور. وكانوا كلُّهم أنبياء صدق وكانوا كلُّهم يحملون رسالة واحدة. غير أنّه ولأسباب مختلفة لم يتسنّ لأولئك الأنبياء أن يحوزوا على مكانة تاريخيّة غير متنازعٍ عليها. فمن ناحية السَّجل التاريخيّ تعتبر نبوءة النبيّ الخاتم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحدها هي النبوّة المسلَّم بها

(1) فصلت: 53

(2) الإسراء: من الآية 79.

والتي لا نزاع حولها، بينما هناك خلافات تاريخيّة حول الأنبياء السابقين. وهذا ما يُمكّننا نحن ـــ معشر المسلمين ـــ من الدعوة إلى الدين المسلّم به تاريخيّا، بينما الآخرون يدعون إلى رسالات مختلف حولها.

كان الدكتور (نشى كانتا تشوبا دهيا) من الهندوس المُثقّفـــين. وقد وُلد (بحيدَرْ آباد) في النصف الأخير من القرن التاسع عشر (19). وبدأ الدكتور (تشوبا دهيا). يبحث عن الحق وتعلَّم لهذا الغرض اللغات الانجليزية والألمانية والفرنسية. ودرس الأديان المعروفة بعناية، قبل أن يتّجه لدراسة الإسلام. ولم تقُنعه هذه الأديان. وكان أهمّ سبب في عدم اقتناعه هو أنه وجد أن جميع الأديان القديمة تفتقر إلى الدليل التاريخي المؤكّد على صحّتها وسلامة نصوصها الموجودة بين أيدينا الآن. فهي عبارة عن أساطير وخرافاتٍ ممزوجة ببعض الوقائع، الأمر الذي يجعل من الصعب الإيمان بها.

ثم درس الدكتور (تشوبا دهيا) الإسلام، واندهش حين اكتشف أن تعاليمه لا تزال محفوظة حرفيًّا كما نزلت، وأن نبيّه وشخصياته وأبطاله أشخاص عاشوا في وهج نور التاريخ، وأن أحوالهم مسجّلة بدقة في كتب التاريخ، وأنهم ليسوا كالشخصيات الأسطورية التي تحفل بها الأديان الأخرى. وهو يقول في كتابه المنشور قبل ثمانين (80) سنة بعنوان (لماذا اعتنقت الإسلام؟)، (Why have I accepted Islam?): «لقد اكتشفت أنه لا غموض في حياة رسول الإسلام، ولا هي مليئة بالأسرار والأساطير التي تطفحُ بها حيـــــاة (زرادشت، وشري كرشان، وحتى حياة بوذا، والمسيح). إن الناس أعربوا عن شكـوكهم، بل وأنكـروا وجود بعض الأنبياء. ولكن كما اعلم ليس هناك من أحد تجرأ على القول بان شخصية رسول الإسلام أسطوريّة. ما أسعد الإنسان أن يجد في نهاية الأمر نبيّا تاريخيًّا، بمعنى الكلمة، لكي يُؤمن به» [1].

وهذا هو (المقام المحمود)، ذلك الوضع المتميز الذي يتمتع به المسلمون. إن النبوة التاريخية (المحفوظة) ليست إلا النبوة المحمدية. إن إنعام صفة (المقام المحمود) على النبيّ العربّي هو التأكيد على أنه لن يكون شخصية مجهولة تاريخيًّا كالأنبياء السابقين. بل سيكون شخصية تاريخية لا سبيل إلى التشكيك

(1) Dr. Nishikanta Chattopadhyay why have I accepted Islam Deccan Hyderabad1904

فيها أو إنكار وجودها. إن سيرة الرسول الكريم محفوظة بحذافيرها كذلك. إن هذا الامتياز هو ميزة كبرى للدعاة إلى الإسلام في هذا العصر. ولو أحسنوا استخدام هذه الميزة لفازوا في ميدان الدعوة بدون منافسةٍ من المبشرين بالأديان الأخرى.

إن الإنسان يبحث عن الله والحق بوحي من فطرته. وهو يبحث في العلوم البشرية عسى أن يجد فيها ما يبحث عنه ولكن يخفق في سعيه. وحين يدرس الأديان القديمة يجدها غير ثابتة تاريخياً فهي تفتقر إلى (المصداقية التاريخيّة). أما المسلمون يستطيعون أن يعلنوا للإنسان الباحث عن الحقيقة: أن الشيء الذي تبحث عنه محفوظ وموثق لدينا. إن ما لدى الآخرين شخصيات أسطورية وتاريخ أنبياء محرف وغير محفوظ، إن لدى دُعاة الأديان الأخرى رسالات أسطورية، أما المسلمون فرسالتهم قائمة على نبوّة تاريخيّة موثّقة (محفوظة).

القضاء على المجابهة السياسية مع الحكام

إن الدعوة الإسلاميّة في هذا العصر مرادفة لإتمام الحُجّة أمام الأمم الأخرى. إنها من اجلَّ الأعمال وأعظمها. وهي تحتاج إلى إمكانات بشرية ووسائل مادية عظيمة، كما هي تحتاج إلى تهيئة المناخ المناسب لتلقّي الدعوة. ويُمكن توفير هذه الإمكانات والوسائل داخل الدول الإسلاميّة بسهولة. ولكنه لن يتحقّق إلا في حالة واحدة فحسب وهي بأن لا نجعل من حكّام البلاد الإسلامية أعداء للدعوة.

لقد حدث سنة ألف وثمانمائة وواحد وتسعين(1891م)، أن وصلت إلى السلطان عبد الحميد الثاني رسالة من الإمبراطور الياباني مَيْجِي (1864م-1912م). وكان الإمبراطور يرجو في رسالته هذه من السلطان العثمانيّ أن يرسل دعاة مسلمين إلى اليابان لتعريف شعبها بالإسلام. ووقع انتخابُ السلطان لهذا الأمر على السيّد جمال الدين الأفغانيّ وأكد له تعاون الدولة الكامل معه في هذا العمل. ولم يلبث السلطان أن سجن السيّد جمال الدين الأفغانيّ رغم ما كان يُكنُّ له من احترامٍ وتقدير في الماضي. ومات الأفغانيّ مشغول بمؤامرةٍ على السلطان لأنه كان يرى في السلطان عميلاً للاستعمار الغربيّ، وكان يَعمل

للإطاحة به. وهكذا انتهى الشخص الذي كان يمكنه أن يفتتح عهدًا جديدا في اليابان.

إن كل الحكّام المسلمين هم كالسلطان عبد الحميد. فهم سيتعاونون معك أعظم التعاون حين تدعوْ إلى الإسلام. ولكنّهم لن يتحملوك لو أثرت زوبعةً سياسية ضدّهم.

ومن سوءِ الحظ أنه يجري الآن إعادةُ أسوة الأفغاني في كل أرجاء العالمِ الإسلامّي. فالمسلمون بعنوانٍ أو آخر، مشغولون بمعارك سياسيّة ضد حُكَّامهم، لدرجة أن (الدعوة الإسلامية) أصبحت (مرادفة) لمعارضة الحكّام السياسية. ونتج عن هذا أن الدعوة الإسلامية لا تظفر من الحكومات الإسلامية بالدعم الكامل. بل، لو انبرى شخص لأداءِ هذا الواجب، بإمكاناته الذاتيّة، لارتابت السلطاتُ في أهدافه وعرقلة عمله.

إعـــداد الـدعـاة الأكفـــاء

نحن نحتاج إلى الكفاءات القادرة على تحمّل مسئوليّة الدعوة واستغلال الإمكانات العصريّة المتاحة. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الجانب حين قال: ﴿**فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ، إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ**﴾[1] إن للمسلمين مالا يحصى من الجامعات والمعاهد والمدارس الدينيّة عبر العالم، وبالرّغم من هذه الكثرة، لا توجد مدرسة واحدة متخصّصة في إعداد الدُّعاة، لكي ينطلقوا إلى الدعوة إلى الله والإنذار من يوم الآخرة، وذلك طبقًا لمقتضيات العصر ومتطلباته، ومن الضرورات الملحة أن ننشئ مدرسة للوفاء بهذه الحاجة، وان ندفع أغلى الثمن لتأسيسها حسب مستوى العصر.

من أهمّ ميزات الكفـاءات المطلـوبة ألا تحمل (العلم) فقـط بل تحـمل (الهدف) عن وعي، والعلم بدون هدف لا يعدو أن يكون مجموعة معلومات، أما العلم المندمج مع الهدف فهو (المعرفة). إن الدعاة الأكفاء لن يتخرّجوا من مجرّد الدّراسة في معهد ذي أساتذة من حملةِ الشهادات. بل لابدّ أن تكون نارُ

(1) التوبة:122.

الهدف متأجّجةً في قلوبِ أساتذة مثل هذا المعهد حتى يخرجُوا دعاة يحملون الفكر الراقي والسلوك المثالي للوفاء بمتطلبات الدعوة. والهدف ـــ دُنيويًا كان أو أُخرَوِيًّا ـــ يتطلب أناسا مستعدّين للتضحية في سبيل ما يؤمنون به بكلّ غالٍ ونفيس. إن صحيفة التايمز من أقدم الصّحف البريطانيّة. وقد نُشر إعلان بهذه الصحيفة ذات صباح سنة ألف وتسعمائة (1900م). ولم يكن هذا الإعلان مزيّنًا بصور نسائيّة أو رُسوم. كان الإعلان عبارة عن مربَّع صغيرٍ يضم هذه الكلمات: «رجالٌ مطلوبون لرحلةٍ خطرة. أجورٌ قليلة، بردٌ قارسٌ، شهور طويلة من الظّلام الدّاكن، أخطارٌ مستمرة، العودةُ بأمان مشكوكٌ فيها. تكريمٌ وتقديرٌ في حالة النجاح ـــ السير (ايرنست شاكيلتون) ـــ». وكان هذا الإعلان بحثًا عن متطوّعين للخروج في رحلةٍ علميّة استكشافيّة إلى القطب الجنوبّي. وجلب هذا الإعلان فيضًا من الطلبات لدرجة أن المشرفين على الرّحلة اضطرّوا إلى انتخاب الأفضل من المتقدَّمين للخروج في الرحلة. إن أناسًا مقدامين عالي الهمّة، كهؤلاء، هم الذين حقّقوا الثورة العلميّة في الغرب ومهّدوا طريق سيادةِ الغرب على العالم.

إن الواقعة الأنفة الذكر هي مثالُ لمن ينبرون للفوز الدُّنيويّ. ونفس الجرأة وعُلوّا الهمّة مطلوبة من الذين يصوغون تاريخَ الإسلام. ومن أمثلته الحوار الذي جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ، ووفد يَثْرِبْ في بيعِة العقبة الثانية، والتي نفّذها أنصارُ المدينة بحذافيرها حين ابتلوا في سبيل الإسلام وفيما يلي جزءٌ من روايةِ ابن هشام حول بيعة العقبة الثانية: قال كعب: «ثمّ خرجنا إلى الحجّ، وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ بالعقبة من أوسطِ أيّامِ التشريق... فلما فرغنا من الحج وكانت الليلةُ التي واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـــ... وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنَا.. فنِمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثُلث الليل خرجنا من رحالنا لميعادِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ نتسلّلَ تسلل القطا مُستخفين، حتى اجتمعنا في الشّعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون (73) رجلًا، ومعنا امرأتانِ من نسائنا. وقال ابن إسحاق: وحدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ، قال العباس بن عبادة بن نضله الأنصاريّ...: «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة وأشرافُكم قتلا أسلتموه؟ فمن الآن، فهـــــو والله إن فعلتم خزِيُ الدنيا

والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نُكهة الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة ». قالوا: « فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فمالنا بذلك يا رسول الله، إن نحن وفَّينا؟ » قال: «الجنّة». قالوا: «أبسُط يدَكَ»، فبسط يده فبايعوه».[1] إن أناسًا واعين عالي الهمّة، كهؤلاء، هُمُ الذّينَ حولوا مجرى التاريخ وقضوا على سيادةِ فكرِ الشرك. واليوم نحن في حاجةٍ ماسّة إلى إعطاء التاريخ من جديد، ذلك الزَّخْمَ الذي أعطاه أسلافنا في عصرهم. لقد قضوا على سيادةِ الشرك وافتتحوا عصر التوحيد. والمطلوب منا الآن أن نقومَ لإنهاء سيادة الإلحاد ولافتتاح عصر هيمنة التوحيد من جديد. إنه من اجلّ الواجبات، والمطلوبين لأدائها هم أفضل الكفاءات. والحاجة تدعو إلى تأسيس هيئةٍ علميّةٍ لإعداد هذه الكفاءات العالية. لقد وصف أحد المستشرقين عصـــر الرسول قائلاً إنه كـان «مشْتَلَ الأبطال» (**Nursery of heroes**)، إننا في حاجة اليوم إلى هيئة علمية عصرية تكون مشتل للدعاة لينبروا لنشر الدعوة الإسلامية عبر العالم دون عقد ودون خوف من النظريات والأفكار الأخرى السائدة. ولابدّ لهذه الهيئة العلمية أن تكون مستقلة عن السياسة وأن تبتعد عن كل الخصومات والنزاعات القوميّة الأخرى. ولو تحقق هذا الحُلمُ لافُتتح ذلك العهدُ الجديد الذي ننتظره منذ قرون.

الـدّعـوة طريق الانتصـــار

إن أهمّ مسألة تستقطب عقول المسلمين اليوم في كل العالم هي مسألة البعث الإسلاميّ من جديد، ولكن لو رأينا ما اتخذوا من مناهج لاستعادة المجد الغابر لعرفنا أنّ لدى المسلمين تطلعًا غامضًا متجذرًا في قلوبهم، ويفتقرون للطرق المرسومة المدروسة لاسترجاع الماضي وتحويله إلى حقيقة واقعة في الوقت الحاضر، وينقصهم التوعية الصحيحة الواضحة.

ويعتنق المسلمون مذاهب ومدارس تفكير متعددة، فمن حالم يحلم بأن تعمير المساجد يتحقق بطريقة نشر بعض الأساطير والأحاديث الموضوعة في فضائل العبادات، ويظن هؤلاء أنّ هذا يكفي المسلمين في هذه الدنيا مغبة العمل

(1) طبعة الحلبي، القاهرة، 1375/ 1956، ج1، ص440 ـ 441، 446

والجهاد، فالدنيا بحسب هذا المنطق وأسلوب التفكير ستؤول تلقائيًا إلى كنف المسلمين. وأمثال هؤلاء أولئك الذّين يعقدون أملهم على الرقي والتعاويذ لإزاحة جبال الهملايا عن مكانها، ولرب خطيب ساحر يرى أن حلّ مشكلات المسلمين مضمونة في الكلمات المزخرفة والخطب الرنانة، ولا يدرك أنّ هذا الكون الذي خلقه الله خاضع للنواميس المحكمة، ولا تعود هذه الجعجعة والفيهقة وطنين الكلمات بفائدة تذكر، ولا تعين في إثبات حقّ.

ولا يقلّ عن سذاجة هؤلاء أولئك الذين يزعمون أنّ استرجاع نقاء الإسلام وصولته يمكن أن يتحقق بتجريد زعيم من السلطة أو الإطاحة بعرش من العروش، أو جرّ حاكم إلى حبل المشنقة.. وهؤلاء لا يستطيعون استيعاب أن المسألة ليست مسألة إخضاع شخص أو أشخاص يناهضون الإسلام والقضاء عليهم بطريق أو آخر، بل إنها مسألة إخضاع القوى العالمية التي قهرت المسلمين وشوهت مفاهيم الإسلام.. فالأمر صراع بين الحق والباطل وليس قضية بعض الأشخاص الزائلين.

قانون تغيير الحُكـم

يبيّن لنا القرآن أنّ الله مالك الملك وأنه يؤتي الملك من يشاء: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾(1)، وهذا يشير إلى أن سيطرة قوم على مقاليد السـلطة (الحكومة) ليس أمرًا بسيطًا عاديًا. بل يكون بقضاء الله وقدره مباشرة، وانتصار قوم يكون دائمًا على حساب قوم آخرين، ولأجل إبراز هذا الواقع المهم يجب حدوث تغيرات واسعة جذرية تجعل الظروف مواتية لصالح جماعة وغير مواتية للآخرين. وتطرأ هذه التغيرات غير العادية في الحياة الاجتماعية لأسباب فوق العادة، ويحدث الانقلاب أيا كان نوعه لأسباب كونية لا تقع عادة تحت سلطة شخص أو جماعة، وعلى سبيل المثال فإنّ الثورة الاشتراكية في روسيا قد تولدت عن ظروف وأوضاع ناجمة عن الحرب العالمية الأولى.

---

(1) آل عمران: 26 .

وتيار الحرية الذي جرى في منتصف هذا القرن وحرّر معظم الدول الآسيوية والإفريقية من ربقة الاستعمار الغربي كان نابعًا من الأحوال الطارئة التي كانت أكبر نتائج الحرب العالمية الثانية. ولم تكن في قدرة الحركة الاشتراكية أو الحركة الوطنية أن تذكي الحرب على نطاق عالمي لو لم تندلع الحربان العالميتان.

وعلى هذا المقياس، يمكن القول بأن مردّ الفتوح الإسلامية السريعة في القرن الأول الإسلامي يرجع إلى سريان الضعف والوهن في السلطتين، الفارسية والبيزنطية بسبب حروب طويلة ناشبة بينهما، والمعلوم أن نشوب الحروب التي دكت القوميتين العظيمتين كان في يد الله وليس في قدرة الإنسان.

ونحن نعلم من القرآن الكريم أن التغيرات السياسية التي تخضع لها الشعوب تطرأ بحكم قانـــون الدفع ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾[1]، وبالتالي فإنّ هذه التغيرات لابدّ منها للإطاحة بنظام مستبد، واستبدال نظام آخر به، يكون خيرًا منه. إن التغيرات العامة التي تأتي من هذا القبيل وهي تغيرات سلبية النوع، أمّا التغيّر الإسلامي فيخرج إلى الوجود لأغراض إيجابية وهذا التغيير نعمة ينعم الله بها على عباده الصالحين وهو جزاء لمن أثبتوا جدارتهم واستوفوا شرائط الصلاح والتقوى، قال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[2]. والحق أن البعث الإسلامي الجديد ليس أمرًا هينًا يحدث بحركات سياسية طائشة عشوائية، وإنّما هو قضية مقاومة لاستبداد الكفر وسيطرة الشرك. وهي مسألة تحويل الحضارة الغالبة عن مكانها القيادي، وإحلال حضارتنا الإسلامية المغلوبة في مكان القيادة. إنّها مسألة استرجاع عهد تاريخي والقضاء على عهد تاريخيّ آخر وخلاصة القول إن المسألة أعقد وأكبر من تصورات المتهورين، ولا يمكن تسويتها بدون قضاء الله وقدراته غير المرئية.

(1) البقرة: 251 .
(2) النور: 55 .

إن الأمر يحتاج إلى (طوفان نوح) الذي يكتسح ذرية الشيطان، كما أنه يحتاج إلى آية موسوية تودي بحياة فرعون وملئه وتغرقهم في اليم. كما يحتاج ذلك إلى ملائكة الله لينزلوا من السماء ويجمعوا طواغيت الكفـــــــر في ميدان (بدر) ويخضعوهم للمسلمين، وهذا معناه أنه لابدّ من عون الله وانه لا يمكن للمسلمين أن يحققوا النصر في هذا العصر ومع هذا الوضع العالمي المعروف ــــ بجهودهم الذاتية فقط ــــ فمعونة الله هي الكفيلة بتحقيق النصر.

حقيقة أنه لا مرية في أنّ المسلمين سيسيرون بأقدامهم إلى الأمام، لكن الله سيهيئ كلّ الوسائل التي يصعدون بها إلى مكانة مرموقة في وقت أقصر، لأن هذا التغير العظيم ليس في قدرة الإنسان وحده. بل أنّ الأحوال في يد الله يقلّبها كيف يشاء. لقد أصبح المسلمون مغلوبين على أمرهم في مشارق الأرض ومغاربها ولا يمكن أن يكون الحلّ للتخلص من هذه الحالة في مقدور حركات عادية وإنّما يكون الحلّ في ظهور أحوال غير عادية، وبالتالي فلا يمكن تحقيق أحلامنا وآمالنا إلا إذا جعلت الإرادة الإلهية جهودنا مواكبة لحركة التاريخ، وأحدث رب المشرقين شقوقا ومنافذ في الصخور السياسية والمدنية التي تقف في وجهنا.

إنّ خالق الأرض والسموات لن يتركنا وحدنا، ولسوف يعيننا إذا استحققنا نصره بالرياح والعواصف التي تهب لتقتلع خيام الأعداء، وتمهد الطريق للملة الإسلامية ولسوف ينزل الله الأمن على جيشنا المسلم، وينزل رعبًا على الجيش غير المسلم عندما تدور رحى الحرب.

وبهذه الأمداد بلغ الركب الإسلاميّ غاياته المنشودة في عهده الأول، لن يبلغها في الوقت الحاضر، إلّا بعودة هذه المعونة الإلهية.

الدعــــوة إلى الله ضمــانٌ للنّصر

ولاستحقاق هذا النصر (البعث الإسلامي الجديد)، من السماء يجب أن يتميز المسلمون بميزة واضحة هي تزكية النفس، وإصلاح الذات، والنهوض بأعباء الدعوة الإسلامية، وهذه هي المسئولية الكبرى الواقعة على أهل الإيمان. وهي نفسها الشهادة على الناس التي يترجمها حديث الرســـول ــ صلى الله عليه وسلم

ـــ: « أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الْأَرْضِ »[1]، فإنّ مؤهلات النصر والتمكين مرهونة بشرط القيام بمسئولية الدعوة. إنّ المسلمين يعيشون اليوم وفي كل العصور السابقة وسط شعوب أخرى، حيث تنهب جماعة ما جماعة أخرى، وحيث تقوم طبقة بنشـــاط مكثف لتستعلي على طائفة أخرى، وإن هذا التصارع يخلق مشكلات للمسلمين، وفي كثير من الأحيان يتعرضون لاعتداءات جماعية أخرى من الطوائف غير المسلمة، وينتج عن ذلك أن ثائرة المسلمين تثور ضد شعوب أخرى عندما يجدون أنفسهم في خطر ويريدون الجهاد ضدهم، ولكن إذا تأملنا في هذه المسألة من المنظور القرآني فسوف نجد حلاً مختلفا عن الحل الذي يطرحه دعاة الثورة.

فإن القرآن الكريم يعلمنا أن الأزمة مهما كانت جسيمة أو تعود بخسارة كبيرة في الأموال والأرواح فإن حلّها هو بالدعوة إلى الله، وبالتالي، فإن جهود المسلمين يجب أن تكون مركزة على الدعوة إلى الله، وينبغي أن لا تكون الدنيا هي المحور الأساسي لاهتمام المسلمين وغايتهم الكبرى، وهذا هو الدرس العظيم الذي وجه إلى الأمة الإسلامية بواسطة الرسول في القرآن الكريم: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[2]، وتثبت لنا هذه الآية بكل وضوح أنّ سر العصمة من الناس كامن في الدعوة إلى الله ، فكلما تعرض أهل الإيمان لخطر الأمم الأخرى واستشعروا خطر الاستعباد فعليهم أن يتوجهوا مخلصين إلى الدعوة إلى الله. فهذا هو العمل الذي ربطه الله بإرادته ووعد بأن يهيئ من أجله أسبابًا غير عادية تشكل سلمًا ينتهي بالمسلمين إلى النجاة والفلاح.

إنّ الميزة التي ينفرد بها العمل في حقل الدعوة هي أن الجبلة (الفطرة) تتحول إلى حليفة له بصفة دائمة فمهما كان الناس مختلفين على مستوى العصبية والعداء فإنه ـــ على مستوى الفطرة ـــ يكون نداء الحق نداء (ضمير) لجميع الناس، إن الدعوة إلى الحق دعوة يكمن معناها في كل قلب، وتضمه كل فطرة، وليس دين الله وطبيعة الإنسان إلا تعبيرين لحقيقة واحدة فقط، لقد جبل كل إنسان على

(1) مختصر صحيح الإمام البخاري 1/ 402.
(2) المائدة: 67.

تصور خالقه في سويداء قلبه، وإنّ باطن كل إنسان مفطور على أن يلقي بنفسه أمام خالقه ومالكه.

وبالإضافة إلى هذه المساعدة التي تقدمها الفطرة ويقدمها النداء المختفي للضمير الإنساني فإنّ ثمة مساعدة تاريخيَّة أخرى وتتلخص هذه المساعدة في أن جميع الأديان قد فقدت نقاءها الأصلي نتيجة تحريفات متبعيها، وتبدلت إلى درجة فقدت معها تلك المطابقة التي وضعها الله بين الدين الحقيقي والطبيعة الإنسانية السليمة، والنتيجة الوحيدة هي أن جميع الذين يؤمنون الآن بدين غير الإسلام، إنما يؤمنون إيمانًا تقليديًا، وهم يقفون على أرض العصبية لا على أرض التصديق الطبيعي والفطري، لأن التصديق الطبيعي لا يوجد عندهم على الإطلاق. إننا إذا نجحنا في إزاحة ستار العصبية فستقف الأديان الأخرى في العراء ولن يكون أمام الناس سبيل إلا أن يستظلوا بشجرة الإسلام الوارفة الظلال.

أمثلة تسخير الدعوة

يكمن سرّ حياتنا في الدعوة إلى الله، وليس هذا الأمر نشازًا بل هو أمر يؤكده التاريخ الإسلامي تأكيدًا واضحًا. لقد بدأ النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقوم بمسئولية الدعوة في مكة، ولكن أرض مكة بدت أرضًا جدباء لا ينبت فيها نبات ولا تلين فيها قلوب للإسلام، وهكذا انقضت ثلاثة عشرة سنة دون أثر يتناسب معها حتى لقد كان يبدو أن تاريخ الإسلام سينتهي بمكة كما بدأ بها، ولكن الأسباب أصبحت مواتية بصورة مدهشة في المدينة، فأزمع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وصحبه أن يهاجروا إليها ويقيموا هناك مركزًا للإسلام. والسؤال هنا: لماذا ظهر هذا المكان الجديد للدعوة؟ والجواب واحد: لقد ظهر هذا المكان الجديد بطريق الدعوة والتبليغ وذلك بفضل جهود بعض أصحاب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعلى رأسهم مصعب بن عمير - رضي الله عنه - فبرحمة الله وبفضل مصعب انتشر الإسلام في المدينة حتى جاس خلال الديار: « حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلّا وفيها رجال ونساء مسلمون »[1]، فهكذا انفتحت أبواب جديدة لنشر الإسلام في ظروف قاتمة باعثة على اليأس والقنوط. لئن كانت الهجرة قد

(1) سيرة ابن هشام، الجزء الثاني: 471.

وفرت للمسلمين منطقة خاصة لهم، فإنّ أعداء الإسلام قد أججوا نيران الحرب من جديد، مما أحدث للمسلمين وضعًا خطيرًا جدًا، وأصبح الإسلام محفوفًا بالخطر، حتى كاد الأعداء يطفئون نور الله بأفواههم، ولكن القيام بواجب الدعوة قد فتح أبوابًا جديدة للإســلام مرة أخرى، وهذه الأبواب تتمثل في (صلح الحديبية) الذي كان له فضل إنهاء النزاع والتصارع والمصادمة فعادت الحالة هادئة وطبيعية، مكنت المسلمين من استئناف الدعوة مما أدّى إلى مضاعفة عدد المسلمين إلى أربعة أضعاف في فترة تقل عن سنتين، وألقى هذا الوضع الجديد للدولة الرعب في قلوب زعماء قريش فألقوا الأسلحة عند فتح مكة بدون قتال .

ولقد ظهرت بعد فتح مكة مسألة أخرى شبيهة للمسألة السابقة، وهي مسألة (ثقيف) فقد كانت هذه القبيلة متمردة جدًا، وكانت تعيش في مدينــة (الطائف) المحاطة بالجبال، فكان من الصعب شن الهجوم على هذه المدينة، ولم يكن الطريق الذي أخضع قبيلة ثقيف لاحقًا إلا طريق الدعوة، فحين دخلت قبيلة (هوازن) التي بلغ عدد أهاليها ستة آلاف في الإسلام وكانت قبيلة هوازن حليفة لقبيلة ثقيف، وكان اعتناق هوازن للإسلام قد تم بطريق تأليف القلوب، ولما اعتنق جميع أفراد قبيلة هوازن الإسلام أحست ثقيف بأن أجنحتها قد تكسرت، ولم يبق أمام أهلها مجال إلا أن يذهبوا إلى المدينة ويعتنقوا الإسلام، ويلتفوا حول رايته. وهكذا كان باب الطائف مغلقًا أمام الحملة العسكرية ولكنه أصبح مفتوحًا أمام زحف الدعوة الإسلامية.

وبحلول القرن الثامن (8) الهجري يجتاز التاريخ الإسلامي الكثير من المراحل التاريخية المختلفة وخلال هذه الفترة يهاجم (التتر) العالم الإسلامي. ليقيموا الدنيا ويقعدونها ويهلكون الحرث والنسل ويعملون السيوف والرماح في أعناق عشرات الآلاف من المسلمين.

في المرة الأولي خرج (جنكيز خان) من (آسيا العظمى) عام (1316م) على رأس جيش يربو على مائتي ألف جندي يشبهون الوحوش والسباع. وقد عمل هذا الجيش على النهب والسلب والقتل، وقد دمّــر جنــوده (العراق وإيران وتركستان)، حتى ساد العالم الإسلامي كله الفزع والهلع والخوف والروع، وغشيه موج من الوحشة. وفى المرة الثانية عام (1353م) يزحف جيش (تتري)

آخر بقيادة حفيده (هولاكو)، ذلك الذي زحف إلى العالم الإسلامي زحفًا يشبه السيل العرم، ليذهب ضحية زحفه دول إسلامية بأكملها، ودهست جيوش هذا الرجل عشرات الألوف من المسلمين في وقت كانت فيه هذه الدول الصغيرة تحاول رفع مجد الإسلام وعظمته في حدود طاقتها. ويصف لنا المؤرخ المسلم (ابن الأثير المتوفى سنه 630هـ) هذا الواقع الأليم، الذي شهده بأم عينه، بهذه الكلمات التي يقول فيها: «.. لو قال لك أحد إنه لم يحدث مثل ما حدث في هذا اليوم منذ ولد آدم ـــ عليه السلام ـــ إلى يومنا، فلن يكون مخطئًا». ويصف مؤرخ غربي هذا الحادث بهذه الكلمات: «لقد سقطت السماء على الأرض، وأبادت ما كان عليها»[1].

في هذه اللحظة الحاسمة كانت قوة الدعوة الإسلامية هي التي أصبحت سدًا ضد سيل التتار، فبدأت قلوب التتر تتفتح على الإسلام ـــ بعد هزيمة المسلمين العسكرية ـــ بفضل هذه الدعوة المباركة، حتى إن الإسلام ملك قلوبهم فاعتنق أكثرهم الإسلام، وهكذا صاروا أمناء الإسلام وحماة المسلمين بعد أن كانوا أعدى أعدائهم، فكيف تحقق هذا النصر يا ترى؟ وهل كان هناك رجال يعملون على نمط النظم التبشيرية السرية، وساهموا في نشر الدعوة الإسلامية؟ أم كان ذلك فقط رحمة من الله تبارك وتعالى توجهت إلى قلوب التتر فوضعت في قلوبهم حنينًا للإسلام والمسلمين؟

إنها الدعوة والرحمة في سياق واحد، وإن التاريخ ليقدم لنا ما تطمئن به قلوبنا، وما يدلنا على كثير من الجهود التي قام بها رجال الله الصالحون لجذب قلوب هؤلاء التتر إلى دعوة الإسلام، غير أن الذي لا جدل فيه أن الانتصار على (التتار) لم يتحقق بالقوة العسكرية بل بفضل قوة الدعوة الإسلامية، فلو لم يعتنق (التتر) الإسلام في تلك اللحظة الحاسمة لكان المسلمون أعجز ـــ في عالم القوة والأسباب والوسائل ـــ من أن ينتصروا على (التتار) أو يقوموا بسد هجماتهم. وقد اعترف المؤرخون كلهم بقوة دعوة الإسلام فيما كتبوا عن (التتر) ونقتبس هنا ما رواه باحثان من غير المسلمين.. يقول (توماس أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام)، P.5 (1896م): « إن المملكة الإسلامية العظيمة قد انهارت على

(1) Harold Lamb “Genghis’ khan” p. 266.

يد (التتار) في سنوات معدودة وقد انكسرت شوكة الإسلام السياسية، ولكن استمرت غلبته الروحية، وهي لا تزال مستمرة دون انقطاع، ولما خربت قبائل (المغول) دار الإسلام وداست على مجد الخلافة العباسية، وأراقت الدماء انهارًا في بغداد، كان الإسلام قد تمكن في جزيرة (سومطرة) وبدأ يدخل جزر (ماليزيا) رافعًا رأسه منتصرًا مستوليًا على قلوب أهلها، لقد حقق الإسلام أيام انحطاطه السياسي انتصارات روحية بارزة للغاية .. فخلال فترتين انتصر الإسلام روحيًا بعـــــد أن هزم عسكريًا.. أولهما أمام القبائل (التترية) التي انتصرت على أهله واستولت على دياره، وثانيتهما وقعت في القرن الحادي عشر (11) الميلادي حين هاجم (السلاجقة الأتراك) الأمم الإسلامية. ولكن هذه القبائل (السلجوقية) المبغضة للإسلام والمسلمين، والغالبة، اعتنقت دين الإسلام طوعًا ودون إكراه!!»[1]، ويقول (فليب حتى) في كتابه (تاريخ العرب):«... في أوائل القرن الثالث عشر (13) الميلادي بدا أن الإسلام سوف يفقد حيويته للأبد عندما زحف رماة القبائل (المغولية) غير المتمدنين على حدود بلاد المسلمين في الشرق وواجه المسلمون من الغرب حملة (الصليبيين) من أعداء الإسلام، ولكن تغيرت الأحوال والموازين في أواخر نفس القرن عندما قذف المسلمون أعدائهم وأعداء الإسلام على الجبهة الغربية في أمواج البحر، وأعلن الأمير السابع من بين الأمراء (التتر) الأحد عشر قبول الإسلام وأمر بأن يكون الإسلام دين الدولة، ولو أن أكثرهم يميلون إلى الديانة المسيحية وتزوج المسلمون بالنسوة المسيحيات، فكان هذا الانتصار جديرًا بأن يفتخر به أهل الإسلام وأبناؤه، وحقق الدين الإسلامي نصرًا في معركة أخفقت فيها الأسلحة المادية، وهو نفس الحادث الذي حدث أثناء حملة (الأتراك السلاجقة) على المسلمين. وبعد نصف قرن من الزمان أو أقل، بدأ (غازان) حفيد (هولاكو) بعد أن اعتنق الإسلام يحاول إحياء نفس الحضارة الإسلامية التي واجهت دمارًا وخرابًا بيد جده الغاشم الظالم، وقد وقّف نفسه وماله لهذا الغرض».

(1) T.W. Arnold The Preaching of Islam 1896. P.5

درس مـن التاريــخ

وقع حادث (التتر) الذي كان بمثابة القيامة لمن شاهده بعينه في أيام الإمام (تقي الدين ابن تيمية) ـــ رحمه الله (738هـ) فثارت حمية هذا الإمام بعد ما شاهد انتكاسة مجد الإسلام فشمر عن ساعد الجد من منطلق الحنــين إلى الجهاد ودعا المسلمـين في الشـام ومصـر إلى الجهــاد وإعــلاء كلمة الله وأعلن أن (الحرب أنفى للحرب) فخرج في عام 703هـ مع السلطان (الناصر) ملك مصر ثائرًا على (التتر) إلى ساحة القتال، وقد حقق في الأيام الأولى من خروجه انتصارًا عسكريًا على (التتر)، ولكن غلب عليهم (التتر) فيما بعد، ولحق الإمام (ابن تيمية) بربه بعد ما عاش في قلعة (دمشق) سجينًا وقضى أيامًا من حياته في التدريس والتأليف. لقد كان الإمام (ابن تيمية) يريد الغلبة على (التتر) بالقوة العسكرية، ولكن حلمه لم يتحقق من هذا الطريق. وفي نفس الوقت الذي فشل فيه الخيار الحربي ظهرت قوة الدعوة الإسلامية، وهي التي أنهت هذه المشكلة، بل حولت أعداء الإسلام إلى أحباء له، بعد ما كانوا قد تعاهدوا على قمع الإسلام من جذوره،

فتجربة القرن الثامن (8) الهجري كانت ولا تزال درسًا للمسلمين يعلمهم أن الذود عن الإسلام وإعلاء كلمته هو أهم واجباتهم. وعليهم أن يعرفوا وسائل تحقيقه، ولكن المسلمين اليوم لم ينتفعوا بهذه التجربة التي قدمها هذا الحادث التاريخي الشهير، وهذا مما يثير الدهشة لدى كبار الباحثين، ففي أيامنا هذه يواجه الإسلام من قبل أعدائه الجدد (تتر العصر الحديث) مشكلات وصعوبات جمة، فنهض زعماء المسلمين بأجمعهم ضد المهاجمين الأعداء، وخاضوا معارك سياسية، لكن لم يظهر في هذه الفترة الطويلة زعيم واحد منهم يحسب أن الدعوة إلى الإسلام جهادًا حقيقيا ويكرس حياته لها.

الإسلام في العصر الحديث

لقد هجم نابليون بونابرت في عام (1798م) على مصر والشام، وكان التجار البرتغاليون قد دخلوا إلى الهند والدول الآسيوية الأخرى قبل ذلك بقرنين، ثم بدأ زحف الشعوب الغربية الأخرى. وهكذا استولى في القرون الأخيرة الماضية (البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون والبريطانيون) على العالم الإسلامي كله، فانقرضت أولا دولة (المغول) في شبه القارة (الهندية)، ثم (الدولة العثمانية) العظيمة آخر خلافة إسلامية عالمية.

ومع صحة القول بأن الاستعمار السياسي قد انتهى في القرن الحاضر (20)، ولكنّ الغرب لا يزال يسيطر على العالم الإسلامي بواسطة الاستعمار التقني، فالمسلمين يعتمدون على الدول الأوربية في كل أساسيات حياتهم من شراء الأسلحة إلى طباعة القرآن الكريم. ومن المعروف أنه ما إن برزت مسألة الاستيلاء الغربي على الشرق الإسلامي حتى ظهرت في العالم الإسلامي حركات كثيرة للدفاع عن الإسلام ولا تزال هذه الحركات باقية. وإن القوة الدافعة الأساسية التي كانت تعمل وراء هذه الحركات الإسلامية كانت مسألة طرد الاحتلال الأجنبي، فإن هذه الحركات مهما كانت مختلفة فيما بينها، فقد وجد أمر مشترك وهو أنها كلها حركات سياسية تحمل وجهة النظر السياسية. وإذا أردنا جمع هذه الحركات المختلفة والمتباينة فإن يمكن لنا جمعها تحت راية (الإيمان المطلق بالحل السياسي) للمسائل الناجمة عن الحكم الاستعماري.

لقد ذهبت جهود هذه الحركات أدراج الرياح، وبالرغم من التضحيات الجمة بالأموال والأرواح، فلم يتمكن المسلمون من تحقيق النجاح حتى في المستوى السياسي، وهو تحقيق الوحدة السياسية العالمية بين المسلمين.

لقد بدأت حركة الاتحاد الإسلامي، أو ما عرف بالمؤتمر الإسلامي، كرد فعل لغروب الدولة العثمانية وسقوط دولة المغول قبلها، وانقسام العالم الإسلامي الواسع إلى دويلات وحاميات، وقد بذل المسلمون في سبيل التخلص من الاستعمار السياسي الغربي دماءهم وأموالهم وأنفسهم، ونفائسهم بسخاء، ولكن

الواقع الأليم المرير هو أن الغرب حقق سيطرته عليهم مرة أخرى بمكره ودهائه عن طريق العلم والتكنولوجيا، بينما استنفذ المسلمون كل طاقاتهم في سبيل الاستقلال عن الاستعمار الغربي، ولكن عندما تحرروا من الاستعمار الأجنبي، وجدوا أنفسهم ـــ مرة أخرى ـــ خاضعين وراكعين أمام عصابات الجاحدين، والثائرين على الإسلام، والمنكرين لفضله.

لقد ضحى المسلمون أكبر تضحية في سبيل إقامة (دولة إسلامية) خاصة بالمسلمين، ولكن عندما تحقق هذا الحلم، أصبح أبناء البلد الواحد منقسمين إلى بلدان عديدة مختلفة، ولقد اتحد المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، ضد إقامة دولة صهيونية في فلسطين، وبذلوا كل غال ورخيص، وما كانوا يملكون شيئا من وسائل أو أسباب لاسترجاع الأراضي المغتصبة، وبالتالي كان لابدّ أن تقوم إسرائيل، وأن توسع حدودها وطاقاتها على حساب عدد كبير من الدول العربية.

لقد فقد المسلمون الكثير في جميع مجالات حياتهم في هذا الزمان، ولم يحصلوا على شيء، ولكن على حد تعبير الإنجيل: «إن الأجير يجمع أجره في كيسة مثقوبة».

والغريب أنه في مثل هذا الجو القاتم المثير لمشاعر اليأس والقنوط، لا يزال يوجد مجال يتقدم فيه الإسلام، فبينما يفشل المسلمون بالرغم من تضحيتهم وجهودهم في المجالات الأخرى، يظل مجال الدعوة الإسلامية ـــ ومع إهمال المسلمين لها ـــ يزخر بالنتائج المشجعة حيث بدأ المنبوذون والطبقات المستضعفة في الهند وكثير من المفكرين الأوربيين يعتنقون الإسلام وبدأت الطبقة المثقفة اليابانية تميل إلى الإسلام بسرعة، واتجه الشعب الأسود في أميركا إلى اعتناق الإسلام، وبدأت القبائل المختلفة في إفريقيا تلتف حول راية الإسلام زرافات ووحدانا .. كما اعتنق عدد كبير من المثقفين في كثير من دول العالم الدين الإسلامي. وكل هذا دون أن يبذل المسلمون أقل الجهد وأقل المال.

فـرص أضعناها

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (19)، وفي النصف الأول من القرن العشرين (20) كان قادة المسلمين وزعماؤهم ينطحون رؤوسهم بصخور السياسة دون جدوى، وخلال هذه الفترة ظهرت إلى الوجود أحداث تشير إلى أن المجال الحقيقي هو مجال الدعوة إلى الله، وليس الأمر تصادمًا أو صراعًا سياسيًا مع الأمراء والولاة، ونذكر على سبيل المثال القصة البالغة الدلالة الآتية: « كان الإمبراطور (ميكادو) الياباني قد أرسل في زمن وجود السيد جمال الدين الأفغاني بالآستانة (سنة 1891م) كتابًا إلى السلطان عبد الحميد يذكر فيه مودته ويقول : « إن كلا منا ملك شرقي ومن مصلحتنا ومصلحة شعوبنا أن نتعارف ونتزاور، وتكون الصلات بيننا قوية تجاه الدول والشعوب الغربية التي تنظر إلينا بعين واحدة... إني أرى شعوب الإفرنج يرسلون إلى بلادنا دعاة لدينهم اعتمادًا على الحرية الدينية عندنا، ولا أراكم تفعلون ذلك، فأنا أحب أن ترسلوا إلينا دعاة يدعون إلى دينكم الإسلامي ويمكن أن يكون هؤلاء صلة معنوية بيننا وبينكم»[1]، وعندما وصلت هذه الرسالة من ملك اليابان إلى عاصمة تركيا كان السيد جمال الدين الأفغاني والعلماء الآخرون موجودين هناك فأراهم السلطان عبد الحميد الثاني هذه الرسالة، ولكن لا أحد منهم أعط الرسالة الاهتمام الجدير بها، ورجع رســــــــــــول إمبراطور اليابان إلى وطنه حاملاً فقط رسالة من السلطان تحتوي على كلمات الامتنان الرسمية. إن السبب الرئيسي في عدم انتهاز هذه الفرص الذهبية إنما هو إغفال المسلمين لأهمية الدعوة إلى الله، وانكبابهم على الانشغال بالشئون السياسية، وقد ظلوا يحسبون أن هذه الشؤون هي التي يجب أن تستولي على اهتمامهم، وظلوا يغضون النظر على أهمية نشر الإسلام وتبليغ رسالته إلى غير المسلمين مع أن الشعوب الأخرى كانت تأتيهم، وتقرع أبوابهم للانتفاع بما لديهم من رسالة الإسلام الخالدة.

(1) محمود أبو ريه، جمال الدين الأفغاني، لجنة التصرف بالإسلام، القاهرة، ص 32.

من قضـــاء الله وقـــدره

اعتنق اللورد (فاروق هذيلي) عضو الأسرة المالكة البريطانية الإسلام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (19) الميلادي، وأعلن في النصف الثاني من القرن العشرين (20) رئيس دولة الجابون (الإفريقية) محمد عمر بانكو اعتناقه للإسلام، ونشاهد في هذا الزمان أيضًا أن الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، والملاحظ أن هؤلاء المسلمين الجدد ليسوا من عامة الشعب، بل هم طلائع رجال الطب مثل (موريس بوكاي)، والفلسفة مثل (روجيه جار ودي)، والهندسة والعلوم وأصحاب المناصب العليا في حكومات مختلفة. ومع حالة المسلمين التي بلغت صورة مزرية من الذل والاستعباد في بلاد الهند، فقد ظهرت فجأة قوة الدعوة إلى الإسلام، وبدأت الطبقات المختلفة تقبل على الإسلام على نطاق واسع، وهذا الوضع العجيب لا يمكن تفسيره إلا من خلال هذا الاقتباس الذي أخذناه من مقال (كرشنادهن بزدا) من (راميشور بغرب البنغال)، وهو المقال المنشور في صحيفة (ريدنيس الأسبوعية الهندية) والذي يقـــــــول فيه : « إن الهندوس يعتقدون في التناسخ والنشأة الجديدة وحقًا فلقد أعادت الهندوسية ولادتها الجديدة في (مينا كثي فورم) بولاية (تامل نادو) في منتصف شهر فبراير في شكل اعتناق أبنائها الإسلام زرافات ووحدانا ». إن وقائع دخول الإسلام التي تتكرر في مشارق الأرض ومغاربها ــ بالرغم من الحالة المزرية للمسلمين ــ تشير إلى أن هذا هو المجال الذي ينتظر الجهود والتضحيات، وأما المجالات الأخرى التي تبذل بعض الحركات الإسلامية فيها جهودها، فلا قيمة لها عند الله فكأنما أحبط الله أعمالها، بينما نرى في المجال الذي لا يبدل فيه أي جهد للقيادات الإسلامية (وهو الدعوة) يقدم لنا نتائج عالمية، وثمارًا طيبة، فكأن الله يبين لنا أن مجالات العمل التي تنشغلون وتبدلون الجهد فيها لا تلقي المعونة الإلهية، وإنما تتجه معونته إلى أرض خصبة إلى حد ينبت فيها نباتها حتى بغير عمل وجهد.

ولو أن المسلمين بذلوا جهودهم في مجال الدعوة إلى الإسلام فسوف يتضاعف الإنتاج وسوف يتحقق ذلك الحلم الذي يحلم به المسلمون وهو غلبة الإسلام وانتشاره وازدهـــار وضعهم الحضــــاري، ولكنهم يبحثون عن تأويل وتحقيـــــق (للحلم) الذي يحلمون به في مجالات أخرى عقيمة.

الدعوة إلى الإســـلام ميدان العمـل الوحيــد

أشاد المفكر والأديب المشهور (جورج برنارد شو)، (1950م) بذكر الإسلام، حيث قال: «إذا كان هناك دين يستطيع أن يسود بريطانيا في المائة (100) سنة القادمة، بل يســـــود أوربا كلها، فلن يكون هذا الدين إلا الإسلام، وإني لأكن في نفسي أعظم تقدير لدين محمد نظرًا لما يوجد فيه من قوة مميزة، فهو الدين الوحيد الذي يستطيع أن يستوعب الدنيا المتغيرة، كما يملك القدرة على جذب القلوب على مر العصور»، وقد كتب المفكر الهندوسي الهندي

(سوامي وويكا)، في سنة (1903م) يقول: «إن الوحدة الحقيقية هي آخر كلمة في عالم الدين والفكر، وهذا هو الرأي الذي ينتهي إليه الإنسان بالنسبة لكافة الأديان، ولكني أرى أن الدين الذي بلغ القمة في المساواة والحب والتعاون بين البشر إنما هو الإسلام فقط، ولهذا فإني أعتقد اعتقادًا جازمًا أن فلسفة (الفيدا) لا قيمة لها بدون الإسلام العملي، وأن الهند التي تمثل نقطة اتصال بين الهندوسية والإسلام يجب أن تخرج في المستقبل القريب من الاختلافات والنزاعات حتى تصبح حصنًا منيعًا محكمًا».

والواقع أن الإسلام هو الأمل الوحيد ليس للمسلمين فحسب بل للعالم كله. إن الدنيا كلها رغم نهضتها المادية تضطرب وتتعطش للهداية الربانية، والمسلمون مظلومون في كل مكان، لأنهم أهملوا أداء مسئوليتهم وغفلوا عن نشر الهداية الإلهية التي يملكونها بين الآخرين من أبناء جلدتهم.

إن الدنيا معرضة للعقوبة الإلهية بسبب حرمانها من الحق، والمسلمون معرضون للعقوبة لإغفالهم واجب نشر الرسالة، ولسوف تبقى هذه الحالة طالما بقي المسلمون متجاهلين مسئوليتهم، وإن الانشغال بشؤون لا تمت بصلة للدعوة، وتسمية تلك الشؤون (دعوة) ليس إلّا جريمة تضاف إلى كثير من الجرائم التي سقط فيها المسلمون، ولسوف يحرمون من رحمة الله سبحانه نظير ما يقومون به من إهمال. لقد كتبت سيدة مسيحية من استراليا في كتابها « فهم الإسلام « تقول: « إن الملامح المجملة لدين الإسلام تدلنا على أن فيه عطاء وافرًا لهذا العالم المضطرب، والحق أن الإسلام يبدو كنزًا غالي الثمن، هجره

المسلمون وخذلوه، فإن حياة المسلمين تختلف تمامًا عما عرفنا من مجد في هذا الدين وأخلاقياته، وما لم يعد المسلمون إلى حقيقة الإسلام فسيظلون متخلفين ومتخبطين في مؤخرة ركب الإنسانية، لأن الإسلام هو الحل الناجح والعلاج الناجع لكل داء، وإنما هو النبراس الوحيد للمسلمين، ليس لأنفسهم فحسب، بل للعالم الإنساني كله ».

لقد أوضحنا فيما سبق ــ من خلال استعراض التاريخ ــ كيف تمت الحماية والعصمة عن طريق تبليغ الرسالة، وعندما نزلت الآية الكريمة: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، وَأَنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**﴾[1]، وتلاها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فإن هذه (العصمة من الناس) لم تكن قد ظهرت إلى حيز الوجود، لقد كان هذا التاريخ مختبئًا خلف ستار المستقبل. وفي هذه الحال فإن الإيمان بهذه الكلمات وما تقتضيه من وقف المهج والأموال في سبيل الدعوة كان أمرًا في غاية الصعوبة، لكن دراسة التاريخ ــ بعد وقوعه ــ أسهل بكثير من عمليه استكشافه واستجلائه قبل وقوعه.

إن المسلمين الذين عاشوا القرن الهجري الأول أدوا أصعب عمل في التاريخ. إنهم استكنهوا الحدث قبل وقوعه، وعملوا له حسب مقتضياته، ومع أننا وكل إلينا أيسر عمل تاريخي بعدهم، إذ أننا نمشي على أرض ممهدة، وما علينا إلا أن نكرر العمل بالمبدأ الناجع تاريخيًا، أي أننا على العكس من أسلافنا الذين ساروا على درب جديدة، ومع ذلك فإن أسلافنا نجحوا في الامتحان الصعب المجهول وإننا فشلنا في الامتحان السهل المكرر. لقد وردت في القرآن الكريم آية تقول: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[2]، ونحن نستطيع استجلاء جانب هام من هذه الآية موجزه، أن المسلمين الذين قاموا بنشر الدين وفق طرق سنها الله لهم، قد تعهد الله لهم بأن يعمي أبصار الكافرين، حتى لا يتمكنوا من القيام بمؤامرة على المسلمين، وحتى لا ينجحوا في مسهم بسوء يقضي عليهم. وهذا جانب آخر نستجليه من هذه الآية يتصل بذات الداعي، وهو أن المسلمين لو لم يقبلوا هذا المنهج الفكري والعملي رغم تعهد الله لهم بالنصر، وسلكوا طرقًا أخرى غير التي

(1) المائدةمن الآية: 67 .
(2) المائدةمن الآية: 67 .

فرضها الله عليهم، فإنهم لن يوفقوا في مساعيهم، ولن يهديهم الله للسير في اتجاه الفلاح. وبالتالي سوف تضيع جهودهم مهما كانت كبيرة بدون فائدة ترجى.

والحق أن المسلمين فشلوا في مساعيهم في العصر الحديث مع أنهم لم يدخروا وسعًا في إنهاض أنفسهم من كبوة الانحطاط، وضحوا من أجل ذلك بمهجهم وأرواحهم، ولكن ضاعت تضحياتهم، وصدق عليهم ما ورد في الإنجيل: «تبذرون كثيرًا وتحصدون قليلا، تأكلون ولا تشبعون. تشربون ولا يسكن الغليل، ويجمع الأجير أجرته في كيس ذي ثقب، أملتم كثيرًا وحصلتم قليلاً وعندما رجعتم إلى البيت ضيعتم محصولكم». لقد بذل المسلمون الكثير في العصر الحديث، ولكن الله أذهب عملهم أدراج الرياح. وهذا تنبيه لهم من الله لو عقلوا ووعوا ـــ كي يتجهوا إلى الدعوة، ولعلهم ـــ قبل يوم القيامة ـــ يعقلون.

نحو تاريخ جديد

كان إعداد جيش بقيادة أسامة بن زيد ــ رضي الله عنه ــ لمواجهة عدوان دولة الروم على المسلمين موضع اهتمام بالغ لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ قبل وفاته، حتى أنه ظل يذكره في لحظاته الأخيرة، ويصدر التعليمات اللازمة لإرسال جيش المسلمين لمحاربة الروم.

وبعد وفاة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أبدى خليفته أبوبكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ اهتمامًا شديدًا بالأمر. فكان أول ما قام به بعد توليه الخلافة أن أصدر أوامره إلى جيش أسامة بن زيد ــ رضي الله عنه ــ للزحف إلى منطقة الشام التي كان يسيطر عليها الروم. وذلك رغم المعارضة العامة لاتخاذ مثل هذه الخطوة. وقد رافق أبوبكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ الجيش الإسلامي مشيًا على قدميه مسافة بعيدة للإعراب عن أهميته لديه. ولكن ما السبب في هذا الاهتمام الزائد بالأمر؟ الواقع انه كان يستهدف تحويل الطموحات الدينية للعرب من الداخل إلى الخارج، لأنه لو لم تتخذ مثل هذه الخطوة في حينها لكان خطر شديد قد يؤدي بالحماس العربي الجارف إلى تصادم داخلي واقتتال وتناحر فيما بين العرب، ولكان حالهم على حد وصف شاعر جاهلي قديم:

وأحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

لقد اعتدى الروم على الحكومة الإسلامية بالمدينة المنورة مما أدى إلى غزوة (مؤتة) وقد استشهد فيها زيد والد أسامة ــ رضي الله عنهم ــ مع عدد كبير من المسلمين، فبادر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ باتخاذ إجراءات عسكرية ضد دولة الروم، وأمر بإعداد جيش من الصحابة تحت قيادة أسامة بن زيد ــ رضي الله عنه ــ وهكذا غير الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ مجرى التحرك العربي من الداخل إلى الخارج.

إننا نواجه الآن وضعا مماثلا... لقد انبعث الوعي الإسلامي لدى الجيل الجديد من المسلمين نتيجة لعوامل عديدة. وكان هذا الجيل على استعداد لتقديم تضحيات كبرى في سبيل الإسلام، إنها مرحلة حاسمة كانت تحتم تحويل هذا

الحماس الإسلامي والخطوات العملية الناجمة عنه، من الداخل إلى الخارج، ولكن هذا الأمر لم يتحقق في حينه. لقد تأثر المسلمون بالتفسيرات السياسية المتطرفة للإسلام، واحتدم الصراع بينهم وبين الأنظمة السياسية في بلادهم.

إن القوة التي كان من الممكن استخدامها لنشر الإسلام في الخارج بدأت تنهك.. هذا الوضع يسود الآن كافة البلدان الإسلامية تقريبا.

إن هذا الوضع يحتم علينا بأن نسعى لخلق وعي جديد لدى الجيل الإسلامي الجديد لتحقيق غاية الحياة الأسمى، ونذكّرهم بأن العمل لرفع راية الإسلام ونشره في العالم الواسع هو المجال الحقيقي لاستخدام المواهب والطاقات التي يتمتعون بها، لأن الصراع السياسي المستمر مع الأنظمة الحاكمة في بلادهم لا يورث إلا الخراب والضياع للأجيال القادمة.

إن المسلمين في عصرنا الحاضر في حاجة ماسة إلى تحديد غاية واضحة لمجال أعمالهم وجهودهم. إن الإنسان يجد أمامه طرقا عديدة.. طريقا يؤدي إلى الضياع وآخر إذا سلكه تحققت غايته. إن الاختيار الحقيقي للإنسان هو أن يختار طريقا صحيحا بين عدة طرق مفتوحة أمامه. إن الإنسان الذي يحمل غايته يجد وجهة صحيحة لجهوده وأعماله، أما الذي لا تكون له غاية يفشل في أن يختار اتجاها صحيحا.

إن أكبر ما فقده المسلمون في العصر الحاضر هو تحديد غاية واضحة. لقد كان هناك هدفان أمام المسلمين في العصر الحاضر... هدف سياسي، وهدف بنائي، إن الهدف السياسي يعني الدخول في الصراع مع الأنظمة السياسية الحاكمة باعتبارها مسؤولة عن كافة المساوي والفساد.

إن الهدف البنائي يقتضي خلافا لذلك ــــ سواء أكانت الغلبة السياسية لهذا الفريق أو ذاك ــــ أن توجه جميع الجهود إلى المجالات التي مازالت مفتوحة أمامنا، وذلك كالعمل للدعوة إلى الإسلام في الجماعات غير الإسلامية، وتثقيف المسلمين، وتوحيد صفوفهم وإعداد كتب بأسلوب عصري، وما إلى ذلك... هذا يبــــــــدو في ظاهرة الاقتناع ب (القليل) إلا أن من يرضى بالقليل يكسب الكثير، ومن يطمع في الكثير في البداية فلا يحظى لا بالكثير ولا بالقليل.

إن أكبر الأخطاء التي وقع فيها المسلمون في عصرنا الحاضر وخاصة المثقفون منهم، أن أغلبهم اتجه لتحقيق الهدف السياسي، وكان ذلك مثل إقامة بناء بدون أساس وكان من الطبيعي أن تذهب جهودهم سدى. إنه بالرغم من الكفاح السياسي الصاخب منذ قرن تقريبا نجد أن مسيرة الأمة الإسلامية لم تتقدم خطوة، لم يكن من نصيبها سوى تضحيات غير مجدية. إن هذا الواقع لدليل تجريبي بأن الهدف المذكور لم يكن صحيحًا يجب عدم تكرار هذا الخطأ، والعمل لشق طريق الجيل الإسلامي الجديد ليصل إلى غايته الحقيقية، حتى لا يضيع في صحاري التضحيات السياسية القاحلة. لاشكّ أن الدعوة الإسلامية أهم خطوة على طريق الغاية الصحيحة، وأعتقد أن أفضل أسلوب للاستفادة من الجيل الإسلامي الجديد المتحمس للعمل أن نوجهه إلى العمل من أجل الدعوة الإسلامية. إن عمل الدعوة الإسلامية يتمتع بميزتين في آن واحد:

أولا: أنه عمل مطلوب من الله سبحانه وتعالى وبه يستحق المسلمون النصرة الإلهية.

ثانيا: أنه يخلق وعيًا جديدًا للغاية لدى الجيل الإسلامي الجديد، ويمكنه من أن يوجه جهوده إلى الخارج ولا يضيع طاقاته ومواهبه في الصراع السياسي الداخلي.

إن الابتعاد عن سياسة الصدام والصراع، والعمل في ميادين البناء يأتي بنتائج مذهلة، وأوضح مثال لذلك ما يقوم به المركز الإسلامي (بكيغإلى) في رواندا ... وما حققه هذا المركز من مكتسبات عظيمة يقدم دليلًا واضحًا على أن الشباب المسلم المتحمس للعمل يمكن استخدامه في مجالات البناء المستمر لخلق مستقبل جديد للإسلام. في شهر سبتمبر من العام الماضي (1982م). أقمتُ لمدة أسبوعين بالمركز الإسلامي (بكيغالي)، ووجدت أن هذا المركز يقوم ـــ بعيدا عن أسلوب العمل السياسي ـــ بأعمال تستحق التقدير، وذلك تحت إشراف عدد من الشباب العرب، إن هذا المركز بالإضافة إلى ما يقدمه من خدمات اجتماعية يقوم بنشر الإسلام بين غير المسلمين، ولا شك أنه حقق نجاحًا كبيرًا في هذا المجال.

إنني أعتقد أن أكبر عمل نقوم به هو أن تعمم هذه التجربة على نطاق واسع، وذلك لإبعاد الشباب المسلم عن النشاطات السلبية وتوجيههم إلى مجالات العمل البناء المثمر، إلا أن تحقيق هذا الهدف يتطلب جهدًا وعملًا مخططًا.

إنني أقترح أن يتم إنشاء منظمة دائمة، وذلك بهدف تدريب الجيل الإسلامي الجديد للقيام بأعمال بناءة ومثمرة ويمكن لهذه المنظمة أن تقوم بعملين في نفس الوقت.

أولا: إنشاء شعبة لتأليف ونشر الكتب الإسلامية بأسلوب علمي هادف تقوم بالتعريف بالإسلام الحقيقي ولا تستخدم التعبيرات المتطرفة وذلك بهدف إبعاد الجيل الإسلامي الجديد عن سياسة الصدام والصراع وعمله على التفكير بأسلوب بناء.

ثانيا: إنشاء معهد للتربية لإعداد نخبة من الشباب المسلم من مختلف أنحاء العالم وفق منهج تربوي خاص في دورات تدريبية قصيرة.

لقد دعا ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن لا تستعمل طاقات المسلمين ضد بعضهم البعض ولكن دعاؤه هذا لم يقبل، قال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ « سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا »[1]، ويتضح من ذلك أن أكبر خطر يهدد المسلمين هو أن ينشب الصراع بينهم تحت شعار أو آخر ولذلك حول الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حماس المسلمين للمبادرة والعمل إلى شعوب غير إسلامية، لاستخدام طاقاتهم في إصلاح هذه الشعوب، ولتجنب الصراع الداخلي. وكانت نتيجة ذلك أن الإسلام احتل مكانه البارز على الصعيد العالمي وصنع تاريخًا جديدًا في العالم.

إن قافلة الإسلام تقف اليوم على منعطف الطريق ذاته، والذي بإمكانه أن يكون سببًا لصنع تاريخ جديد للإسلام شريطة أن ننجح في إبعاد هذه القافلة عن جبهة الصراع الداخلي وتغيير اتجاهها إلى الميدان الخارجي والداخلي البناء.[2]

---

(1) صحيح مسلم 4/ 2216.

(2) **مجلة الدعوة –عدد 925 16– يناير 1984 مالسعودية.**

المحتويات

يسر جمعية الرسالة، اطلاعكم على كتاب المنهج الرباني في الدعوة الي الله، و لمزيد من التفصيل نقدم للقارئ الكريم هذه الروابط، لبعض كتب المؤلف بالعربية:

المنهج الرباني في الدعوة إلى الله	
التفسير السياسي للدين	
القضية الكبرى	
حكمة الدين	
الاسلام والعصر الحديث	
الفكر الاسلامي	

منهج الهداية (محمد القائد)	
رابط صفحة المفكر وحيد الدين خان العربية على الفيس	https://www.facebook.com/Wahideldin
رابط جمعية الرسالة على الفيس بوك	https://www.facebook.com/gsalem27